المملكة المغربية
الوزارة المنتدبة لدى الوزير الأول
المكلفة بالإسكان والتعمير
مديرية الهندسة المعمارية

التراث وروح المجال

www.marocpluriel.com

التراث وروح المجال
تازة

فهـــرس

مقدمة 5

السيرة الذاتية للكاتب مَحمد بن أحمد لمراني 8

رحلة بتازة عبر الصورة والتعليق 10

دليل لمواقع الصور الفوتغرافية 126

تشكرات 128

تـوطـئـة

تتشرف مديرية الهندسة المعمارية أن تقدم سلسلتها الجديدة "التراث وروح المجال" بهدف المساهمة في دعم الرصيد العالمي للأرشيف المتعلق بالتراث المعماري من جهة، في إبراز البعد الأساسي وتجليات المكامن الخفية التي تختزلها كل هندسة معمارية، من جهة أخرى. إضافة الى أنها تأتي لتعزز السُّنة الحميدة التي دأبت المديرية على إنجازها منذ سنة 1999، وذلك حين أصدرت الأعداد الأولى من سلسة حوارات حول المدينة وأخرى من سلسلة دفاتر الهندسة المعمارية.

ومن أجل تكوين أرشيف مستقبلي يهم التراث المعماري، تم الاعتماد في إعداد هذه السلسلة على صور فوتغرافية التقطها المصور المحترف السيد ميشال ناشف المعروف بإحساسه المرهف تجاه كل ما ينم عن الحضارة الإنسانية، لاسيما ما يتعلق منها بالمجال المبني بمختلف مكوناته وخاصة التراث المعماري.

وقد عهد إلى السيد ميشال ناشف القيام بتغطية فوتغرافية لما يناهز ثلاثين مدينة تاريخية وضواحيها، وهي ما يطلق عليها "المدن المؤسسة" التي كانت لها حدود جغرافية وسوسيولوجية ملموسة، وأحياء مهيكلة ومسالك مصنفة ورجال صالحون... والى يومنا هذا لازالت تلكم المدن تختزل القيم المشتركة والمستوى المعرفي والحضاري لأناس خلفوا آثارا ستظل شاهدة على فنيتهم العالية المستوحاة من روح المجال الذي احتضنهم.

وإذا كان التعليق المصاحب للصور المأخوذة بطرق تقليدية أو بالنمط الرقمي الحديث، يعطي فكرة عن الموقع الجغرافي لبناية أو فضاء سوسيولوجي ونبذة عن تاريخهما، فإنه يبقى غير كاف مهما بلغ المستوى الفني للصور والظروف الطبيعية الملائمة لالتقاطها، للتعبير التام عن العلاقة القائمة بين الإنسان والتراث وروح المجال.

إنه لمن المؤكد ضرورة القيام بمجهود إضافي لإعطاء مزيد من التوضيح عن قيم تظهر ملموسة، لكنها أبعد من ذلك، حيث تحمل معاني لا مادية. والتساؤل المطروح هو كيف يمكن ضبط وتحديد معنى إضافي يصعب تلمسه أو التقاطه وتبليغه، كما يتعذر اختزاله في كلمة واحدة أو نص واحد أو أي شكل من أشكال التعبير.

لقد كان الغرض من إعداد هذه السلسلة هو رفع التحدي، والعمل على إظهار التراث المشترك والروح التي يختزلها كل مجال، الأمر الذي دعا إلى إشراك مجموعة من الكتاب من منابر علمية وأدبية واختصاصات مختلفة، الذين شرفوا مديرية الهندسة المعمارية بمساهماتهم البناءة في إغناء هذا المجهود. وما تناغم وتناسق التعاليق التي ساهم بها هؤلاء الكتاب إلا برهان على مستوى تفاعلهم مع الفضاءات والصور التي جعلوها تنطق بتعاليقهم عليها، حيث خلفوا صدىً يعكس إحساسهم المرهف الصادر عن قراءتهم لهذه الصور والفضاءات مما أدى إلى طرح مزيد من التساؤل بدل تقديم حلول جاهزة.

وفي محاولة أولى من نوعها، اشتغل كل كاتب على حدة انطلاقا من المادة الفوتغرافية، دون أي قيد أو شرط مسبق، حيث عملنا بكل أمانة على تبليغ مضمون ما جادت به قرائحهم واحترام اللغة التي تم اختيارها لكتابة تعليقهم والتسلسل الشكلي للنص وترتيب الصور مع النزول عند رغبتهم في إضافة بعض الصور المعبرة عن مجالات أخرى تم إغفالها.

إن الحرية في التعبير والشكل، إضافة إلى الإفادات المختلفة التي قدمتها النصوص الغنية والمتنوعة في طرق سردها وخصوبة تصورها وشاعريتها، فقد أضافت على كل تعليق نكهة خاصة حسب الكاتب والمدينة المعبر عنها، باعتبار كونها إحدى المقاصد المرجوة من إحداث هذه السلسلة.

ولعله يسهل فهم بعض المرافق العمومية المؤثرة في إطار عيش فضاء مبني لمدينة معينة كشبكة للطرق أو للتطهير أو للإنارة أو نمط النقل العمومي، غير أنه يصعب إدراك المجال المشترك والانخراط فيه أو الإقصاء منه، كما يصعب إدراك التضامن الجماعي أو الذاكرة الجماعية أو الإحساس بالانتماء لقيم خاصة أو لإطار عيش معين.

لقد أصبح من الواضح جدا أن ساكنة العالم سيتمركز معظمها في تجمعات حضرية، وذلك على المدى القصير أو المتوسط. وأن الساكنة المغربية ليست بمنأى عن ذلك، رغم أنها اليوم تتوزع بشكل متساو على الوسطين الحضري والقروي، مما يدعونا إلى البحث بجدية وفعالية عن سبل إرساء تمدن مواطن لا ينحصر في معطيات كمية تتعلق بالإطار المبني- الذي هو في الآن نفسه إطار عيش الساكنة - بل يجعل البعد الإنساني في صدارة الأولويات. ويقتضي ذلك إرساء قواعد قانونية مؤسساتية والوقوف على النتائج التي ستعكس مدى انصهار وتفاعل الساكنة مع التمدن الحضري أو ستعبر عن وجود شرخ اجتماعي يفعل التفكك والإقصاء.

ونأمل أن تجد المجهودات المتضافرة، التي تبذل في إنجاز كل عدد من هذه السلسلة، صدى إيجابيا لدى كل قارئ، وأن تعمل على التأثير في مخيلته أو تلهم شاعريته لاكتشاف حمولة التمدن التي تختزلها كل مجموعة من الصور كما نرجو أن تساهم في تعزيز الروابط الاجتماعية التي نسجت لإرساء تمدن معاصر وفق ما جاء في الخطاب السامي لجلالة الملك محمد السادس نصره الله يوم 20 غشت 2004 بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب في تعريفه للمواطن المغربي حين قال جلالته:

"فأن تكون مغربيا معناه الجمع بين التشبع بثوابت الهوية المغربية الموحدة، الغنية بتعدد روافدها، وتقاسم القيم والتطلعات المشتركة للأمة، وبين التفاعل الإيجابي مع مستجدات العصر والانخراط في مجتمع المعرفة والاتصال".

السيرة الذاتية للأستاذ مَحمد بن أحمد لمراني

ولد الأستاذ مَحمد بن أحمد لمراني بمدينة تازة في أوائل الثلاثينات حيث لم يكن دفتر الحالة المدنية موجود آنذاك. حصل على الشهادة العالية من جامعة القرويين سنة 1956 واشتغل في مجال التدريس، حيث عمل أستاذا بثانوية ابن بري ومركز تكوين المعلمين بتازة.

وقد حضي الأستاذ مَحمد بن أحمد لمراني بنيل وسام الاستحقاق الوطني من الدرجة الممتازة سنة 1983. له عدة أبحاث ومقالات متعددة تم نشرها في مجلة "دعوة الحق" ومجلة "الإحياء"، وصحف رابطة علماء المغرب و"ملحق الفكر الإسلامي" الذي كانت تصدره جريدة "العلم" كل يوم جمعة.

له تراجم مختصرة حول فقهاء تازة وأدبائها ومتصوفتها بالإضافة إلى بحث حول مكانة تازة العلمية من خلال النصوص التاريخية والانتاجات الأدبية والفقهية والصوفية. كما صدر له كتاب "ابن بري التازي إمام القراء المغاربة" سنة 1996 بتقديم المرحوم عبد الله كنون الحسني والدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية سابقا.

كما أعد بحثاً قيماً حول أربعة من أعلام إقليم تازة جمعوا بين الشعر والتصوف وهم:

1 - إبراهيم التازي اللتني الشاعر الصوفي دفين وهران

2 - ابن يجيش التازي الشاعر الصوفي المجاهد دفين تازة العليا.

3 - احمد بن فتوح التازي شاعر الزاوية الشرقاوية دفين أبي الجعد.

4 - احمد الحبيب اليعقوبي الرشيدي دفين رشيدة من إقليم تازة.

وقد قام الدكتور عبد الهادي التازي بتصدير لهذا البحث الذي نال به الباحث جائزة عبد الله كنون للدراسات الإسلامية والأدب المغربي في دورتها الخامسة سنة 1420هـ/1999م فرع الأدب المغربي.

كما أسندت للأستاذ مَحمد بن أحمد لمراني خطبة الجمعة في مسجد الدكتور مانع سعيد العتيبة والوعظ والإرشاد بمسجد كراكشو بمدينة الرباط منذ سنة 1998م ولا زال يقوم بهذه المهمة إلى الآن

وعلى إثر تقديمه لبحثين الأول حول "فقهاء إقليم تازة الشعراء والنظامون" والثاني حول "المديح النبوي في أشعار بعض متصوفة إقليم تازة" نال جائزة عبد الله كنون للدراسات الإسلامية والأدب المغربي في دورتها السادسة 27 ذي الحجة 1423هـ الموافق لفاتح مارس 2003م.

شهادة في حق مدينة تازة

وهذه "تازة" موضوع الحديث لا يمكن للباحث أن يخط سطراً واحداً في التاريخ السياسي والحضاري للمغرب دون ما أن تنتصب أمام عينيه "تازة" بمعالمها وأعلامها وبمؤسساتها وبقاعها وبموقعها الاستراتيجي الذي جعل منها الحصن المنيع الذي حمى مدينة فاس وبقية أطراف المغرب الشمالية والجنوبية من المتربصين والطامعين الذين ظلوا يحلمون بتفويض أركان الدولة.

ومن أجل هذا فإن كل ماكتب عن "تازة" من شأنه أن يسهم في إزاحة الغموض عن مدينة كانت منتجعاً للقادة، ومدرسة للرجال، وملاذاً للطامحين والمنتقدين... وسيظل تاريخ الأمس وراءها في تاريخها اليوم وفي تاريخها في الغد بفضل أبنائها الذين يعتز المغرب بحضورهم في كل حقل من حقوله الإنشائية والتنموية والمعرفية.

.د.عبد الهادي التازي
من كتاب "ابن بري التازي إمام القرك المغاربة" ص8
تأليف الأستاذ محمد بن أحمد لمراني
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. 1416هـ/1996م.

"على لسان رباط تازا"

وإن تازة منذ كانت مساجدها ... وهي للعلم والآداب ميدان

صان الرشيد واسماعيل حرمتها ... وهز أعطافها المولى سليمان

وتوج الحسن الثاني حضارتها ... وفي الحضارات أشكال وألوان

به تيممت الأوطان وانطلقت ... تبني شعارها تشييد وعمران

قصورها الشامخات الشم من قدم ... كأنها لمعاني الفن إعلان

الشاعر الباحث المرحوم أبو بكر البوخصيبي

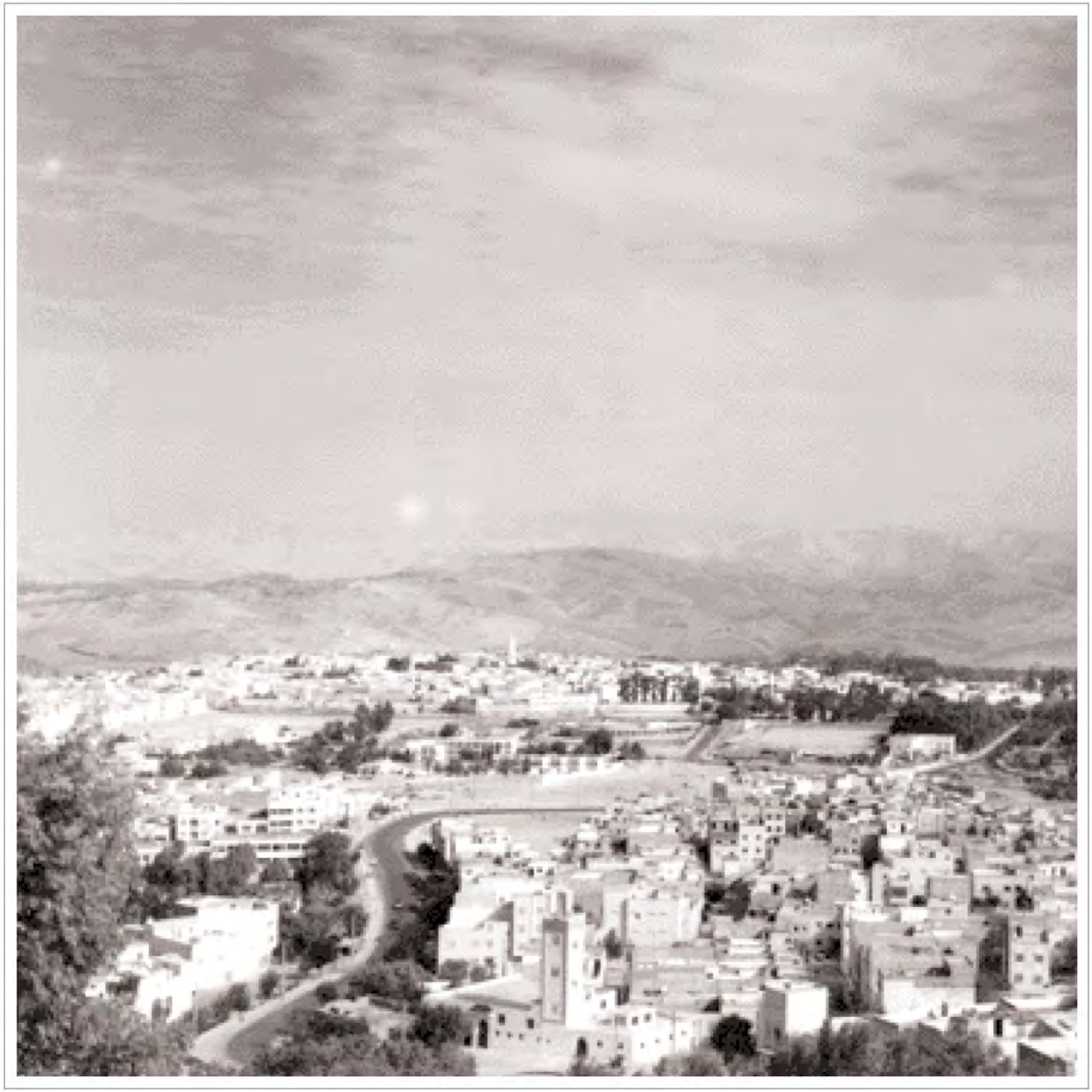

تازة والذاكرة الجماعية:

يرتبط إسم مدينة تازة بمجموعة من الأمثال الشعبية والمأثورة حيث يمكن أن نذكر هذه المدينة بالدور التاريخي الذي لعبه "رباط تازة" تاريخياً، أو بالصابون المشهور ب "صابون تازة" الذي لم يعد له أثر حيث يذكر الأستاذ العربي الصقلي في "مذكرات من التراث المغربي" في الصفحة 146 "أن مهنة الدباغة وصنع الصابون قد اندثرت"، وكذا الثريا المعروفة وطنياً وعربياً والموجودة بالجامع الكبير حيث يقول الشاعر في هذا الباب "أنا الثريا التي تازة بي افتخرت على البلاد فما مثلي الزمان يرى"، دون أن ننسى كرم وسخاء سكان هذه المدينة الأصيلة ومن منا لا يتذكر المثل المغربي المعروف في هذا الشأن "سيري الدجاجة لتازة"، وكذا الشكل العمراني الذي تتميز به هذه المدينة حيث تنقسم إلى مجموعتين عمرانيتين منفصلتين بسبب صعوبة التضاريس التي تميزها وهكذا نسمع أن بمدينة تازة توجد "تازة العليا وتازة السفلى" حيث يمكن الربط بينهما عبر "أدراج باب الجمعة" والتي يبلغ عددها 265 درجاً، وكذا الأسطورة الغرامية المعروفة عند العامة والمتمثلة في حكاية العشيقين افري وبطو اللذان اعتزلا داخل مغارة تحمل اليوم إسميهما " مغارة افريوالطو" والتي تعتبر من أكبر المغارات على الصعيد الوطني والافريقي كما تجدر الإشارة أنه "مابعيدا غير تازة"...إلخ.

معنى "تازة"

يلاحظ المؤرخون أن مدينة تازة كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي بمآت السنين، ولعل تسميتها بهذا الاسم هو أنها كانت في الأصل "تزي" بكسر التاء وتشديد الزاي ومعناها البربري الثنية أي طريق العقبة، ويؤيد هذا أن كل من صعد إلى مكان مرتفع تظهر له هذه الثنايا من جميع الجهات، فهناك ثنايا تطل على ملوية، وثنايا تطل على مكناسة الشرقية، وثنايا مكناسة الغربية وتمتد بك هذه الثنايا إلى جبل الطواهر ذي المنعرجات والشعاب الوعرة.

ويؤكد هذا الفهم الدكتور عبد الهادي التازي في كتابه "رسائل مخزنية" القسم الأول ص12 حيث يقول: "ولذا كانت كلمة "تازي" تعني بالفارسية معنى "عربيا" فإنها عندنا نسبة لتازة التي هي تعريب للفظ "تزا" الزناتية التي تؤدي معنى الثنايا، والواقف بأعلاها تقابله فعلا الثنايا والمنعرجات من جميع الجهات".

نبذة تاريخية عن مدينة تازة:

لقد لعبت مدينة تازة أدوارا هامة في تاريخ المغرب القديم والحديث، فظهرت لأول مرة على مسرح السياسة بعد الفتوحات الإسلامية أيام الدولة الإدريسية، فبعد وفاة المولى إدريس الثاني تولى الحكم بعده ابنه محمد الذي قسم المغرب على إخوانه كرؤساء للنواحي، وكان من نصيب أخيه داوود تازة، ثم دخلها المرابطون سنة 452هـ على يد أبي بكر بن عمر، وفي سنة 529هـ دخلها عبد المومن بن علي الموحدي في غزوته الكبرى التي كانت نهاية لدعوة المرابطين.

وفي عهد عبد المومن بن علي الموحدي تم بناء الشطر الأول من المسجد المعروف بالجامع الكبير سنة 542هـ.

وفي عهد المرينيين أضيفت إلى المسجد المذكور زيادات مهمة : أربع بلاطات في قبلته، وبلاطان شرقي وغربي مع إصلاح صحنه الذي كان قريب السقوط، وكان الفراغ من بنائه في أواخر شوال سنة 691هـ..

"رباط تازة"

يمثل الأمن والأمان قيمة أساسية لنشأة المجتمع الحضري المستقر، ويعكس ذلك بوضوح دعوة أبي الأنبياء إبراهيم "رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات"، فسبق الدعاء بالأمان الدعوة بطلب الرزق سبقا يؤكد هذه الأهمية. واعتبر الإسلام بناء الأسوار والأبراج والقلاع والحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض وهي من مقاصد الإسلام.
وحماية للمدن حملت الأسوار والأبراج والخنادق من خصائص المدن حتى القرن الثامن عشر الميلادي في العالم الإسلامي بل حتى اليوم في أجزاء من العالم. وانطلاقا من أهمية الأمن الذي يتوفر بتحصين المدينة اعتبر السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن
بالنسبة لمدينة تازة العتيقة، فقد ابتدأ تحصين المدينة باختيار الموقع الذي يعتبر حصينا بطبيعته حيث توجد المدينة فوق هضبة متوعرة من الجبل وباستدارة واد الهضار حيث يصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها على غرار بعض المدن العربية كبغداد والقاهرة...إلخ. لكن كل هذا لم يمنع الموحدين من إقامة الأسوار حول المدينة لتحقيق تحصين المدينة تحصينا سليما في ضوء الأساليب الدفاعية والهجومية وآلات الحصار.
لقد كان المحور الأساسي الذي حكم بناء "رباط تازة" يقوم أساسا على تنظيم العراقيل بين المهاجمين والمدافعين لمنع الغزاة من المضي في سبيلهم، ولوقاية المدافعين. ومن خلال هذا تتضح فكرة الإعاقة للعدو التي اعتمد عليها من خلال العناصر الثلاث الأساسية المتمثلة في الموقع والسور المزدوج والخندق الغائر الذي يكلف العدو مشقة الهبوط والصعود ويسهل على المدافعين الدفاع عن مدينتهم.
تعتبر المدينة العتيقة لتازة من بين المدن المغربية والعالم الإسلامي التي تم فيها استعمال مختلف عناصر العمارة الحربية حيث تم تطوير أساليب الدفاع، ويتضح ذلك من خلال اختيار الموقع الصعب المنال وفي الأسوار المزدوجة، والأبراج المتنوعة الأشكال (المربعة، المستطيلة، المقوسة والبيضاوية، إلخ.....) والخندق والأبواب الرئيسية ذات مدخل على شكل مرفق التي كان يحكم إغلاقها وفتحها حيث كانت تؤدي إلى الشوارع الرئيسية وتنتهي إلى المسجد الأعظم والقصر والسوق أو مركز المدينة.

موقع تازة المتميز:

"إن موقع مدينة تازة موقع فريد لكونه صلة وصل بين المنطقة الشرقية والمنطقة الغربية من المغرب من جهة، وبين جبال الريف شمالاً والمجموعة الأطلسية (ومن ضمنها الأطلس المتوسط) جنوباً.
فكانت هذه المدينة ممراً ضرورياً يفصل ناحيتين متباينتين، وهما سلسلة الريف والأطلس المتوسط. وبقيت هذه الطريق، منذ القدم، ذات أهمية كبرى ولا تخرق الجبال الموجودة غربي مدينة تازة إلا عن طريق الوادي الضيق الذي يجري فيه نهر إيناون ومن ذلك كان لموقع تازة أهمية عسكرية ذات بال، إذ إنها تستطيع أن تغلق ذلك الممر بين الشرق والغرب.
ويكاد دخول مدينة تازة يمتنع من جهات الشمال والغرب والشرق أما من الجهة الجنوبية الجبلية، فيسهل النفوذ إليها، وذلك ما جعل سكانها يحصنونها بسورين وخندق للدفاع على منابع الماء ومنع الغزو الذي كانت تتعرض له المدينة من طرف القبائل المجاورة وخاصة قبلية غياتة عندما كانت تضطرب الأحوال.
كما يمكن اعتبار الفترة الموحدية أساس تسمية المدينة ب "رباط تازة" (القرن الثاني عشر الميلادي) حيث أمر السلطان الموحدي سنة 529هـ 1135م بمجرد وصوله إلى بلاد تازة ببناء "رباط تازة"، إذ عمل على تحصين المدينة وجعلها قاعدة للعمليات العسكرية المستقبلية بالمنطقة ونقطة استراتيجية لمراقبة الطريق الرئيسية الرابطة بين بلاد المغرب والشرق.
ومن ذلك أيضاً تدرك الاهتمام الكبير الذي أولته لهذه "الثغرة" قوات الاستعمار التي كانت مرابطة في شرقي المغرب وفي الشاوية قبل الحماية.
ويعتبر رباط تازة من بين الثغور التي لعبت دوراً مهماً في محاربة الغزو الاستعماري حيث لم يتم إخضاعها إلا في 17 ماي 1914م، وربط الشرق بالغرب لم يتيسر إلا قبيل الحرب العالمية الأولى. وقد كتب أ.بيرنار سنة 1917م في مؤلفه "*La France au Maroc*" ما يلي: "لا داعي إلى أن ننبه إلى الأهمية الكبرى التي نراها في هذا الجناح الذي يصل المغرب بالجزائر وكانت وحدة ممتلكاتنا الإفريقية غير تامة مالم نستول عليه أي "ممر تازة".

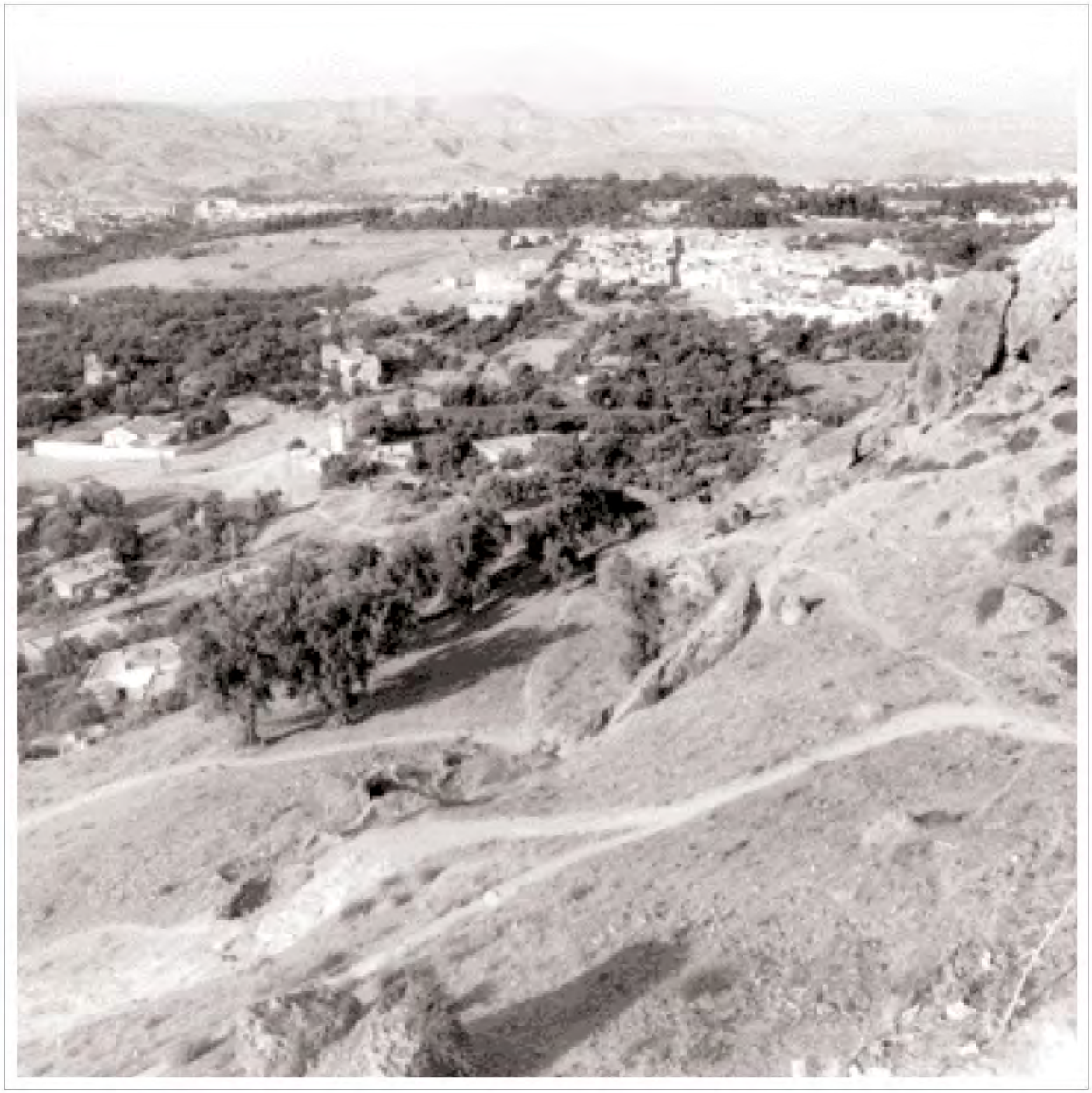

الجامع الكبير أو المسجد الأعظم:

في عهد المومن بن علي الموحدي تم بناء الشطر الأول من المسجد المعروف بالجامع الكبير سنة 542 هـ وفي عهد المرينيين زيدت في المسجد المذكور زيادات مهمة : أربع بلاطات في قبلته وبلاطان شرقي وغربي مع إصلاح صحنه الذي كان قريب السقوط، وكان الفراغ منه في أواخر شوال: 691 هـ.

وقد أمر أبو يعقوب يوسف بتعليق الثريا الفريدة من نوعها سنة 694 هـ، وهي ثريا نحاسية ضخمة بديعة الصنع، يعجب المشاهد كثيرا بشكلها المخروط وبعظمتها.

ويقابل محراب هذا المسجد العظيم جرس زيدت فيه بعض الدوائر النحاسية المنقوشة فأصبح على شكل ثريا صغيرة الحجم.

هذا وقد قال بعض الشعراء في محراب هذا الجامع وفي الثريا العظيمة والعنزا البديعة الصنع:

يكفيك ياتازا فخرا بمسجد يتناهى
قل نظيره حسنا فضله لا يتناهى
محرابه والثريا حاز العلا وحواها
قد أبدعت فيه عنزا يكفي الفتى أن يراها
أحسنت يا بن فتوح إتقانها فكفاها
تاريخها رشد خير لمن تولى بناها
يارب صل وسلم على حبيبك طه

والجدير بالذكر هنا أنه أثناء إدخال بعض الإصلاحات على المسجد الأعظم أخيرا، أحيطت الثريا بسياج خشبي مزخرف من جميع جهاتها، ثم إن الصورة لا تظهر إلا صومعة المسجد وجزءا صغيرا من صحنه الواسع، كما أن خزانة المسجد الأعظم كانت من قبل في مقصورة باردة، ثم حولت إلى مكان قرب الصحن، بحيث أصبحت صالحة للاستفادة من مخطوطاتها القيمة.

ومن باب الاعتراف بالجميل وتقديم الشكر لفاعله أن الأخ الدكتور عبد الرحيم العلمي أستاذ الفكر الإسلامي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس قد قام بفهرسة هذه الخزانة العلمية في جزئين نفيسين، وقد طبعتهما وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة : 1423هـ 2002م بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله.

والجدير بالذكر أيضا أن المسجد الأعظم لم يكن له هذا الدور الثقافي الإسلامي في بعض العصور فقط، بل كان له دور وطني كبير أيام الاستعمار الفرنسي، ولا يمكن الحديث عن هذا الدور الوطني إلا بالحديث عن الدور الذي لعبته زاوية مولاي الطيب بتازة العليا، إذ الارتباط بينهما في هذه الفترة الاستعمارية الحرجة قوي، والحديث عن دورهما الوطني لا يكفي فيه حديث عابر، ولهذا فإني أرجئ الحديث عن هذا الدور في آخر هذا التعريف المختص عن الهندسة المعمارية لهذه المدينة العتيقة، وذلك بتخصيص ملحق يشير بإجمال مركز إلى هذا الدور الوطني المشرف، والله المعين والهادي إلى سواء السبيل.

وهذه الصورة تظهر جانبا صغيرا من جوانب صحنه الواسع الذي يوجد في وسطه مكان خصص للوضوء، كما تظهر بعض أبوابه المقوسة والمزينة أعلاها بالقرميد الأخضر.

وحبذا لو بقيت الصومعة على لونها القديم حتى لا يفهم الزائر أنها حديثة العهد بالبناء.

وقد كان لهذا المسجد دور كبير في نشر الثقافة الإسلامية، بدليل وجود خزانة علمية هامة به، ألا يدل وجودها على أنه كانت هناك حركة فكرية؟ وأن هذا المسجد كان بمثابة جامعة القرويين يؤمه الطلاب من نواحي تازة وغيرها للتزود بالمعرفة.

وحينما ترجم العلامة المرحوم عبد الله كنون الحسني لشخصية ابن برين التازي المقرئ في جريدة "الميثاق" عدد : 236 قال عن تازة ما يلي:"وكان الوسط العلمي في تازة إبان ذلك مزدهرا، بسبب عناية الدولة الجديدة وهي دولة المرينيين بهذه المدينة، لأنها كانت من أوائل المدن التي دخلت في طاعتهم، وصارت بعد ذلك هي وناحيتها منطلقا إلى الغرب، وقد جددوا معالمها وأنشأوا فيها مساجد ومدارس لطلبة العلم ورتبوا بها المدرسين حتى أصبحت ثالثة مدن المغرب الكبرى كما يقول الحسن الوزان وقد كانت من قبل دار علم، تظهر فيها العلماء والأدباء والصوفية الكبار، وقد اكتمل مجدها بإمام القراء المغاربة ومعتمدهم أعني مترجمنا هذا (ابن برين)".

ويؤكد هذه الحقيقة ما قاله الدكتور عبد الهادي التازي في مقاله القيم المنشور بمجلة "دعوة الحق" عدد 241 (محرم 1405هـ / أكتوبر 1984م) حول تاريخ مدينة تازة حيث يقول:"وفي الحوالات الحبسية انعكاس لأخبار تازة ونشاطها العلمي والثقافي" ثم يقول:"لقد كانت بذلك في صدور القواعد الثقافية الكبرى للمغرب، مثل فاس وسبتة ومراكش وسلا ومكناس، بل كما رأيناه بالنسبة للقاضي عياض الذي اضطهده الموحدون والذي وجدنا خزانة المسجد الأعظم بتازة تنشأ برسم حفظ كتابه "الشفا".

هذا وقد كتبت بعض الأبيات على خزانة صغيرة يسار محراب المسجد الكبير تقول:

منـزل بين الخـزائن شـامخ ... قد خص من بين الإله بمنـزل
حفظا لمجموع الشفا أنشئ عن ... أمـر الخليفـة فـارس المتوكـل
في عام سبع بعد خمس انقضت ... وهي سبع في ربيع الأول

وينقل الدكتور عبد الهادي التازي عن الوزير الإسحاقي قوله عن تازة: "وزرناها فإذا هي مدينة آخذة من الحضارة بطرف، وحصن حصين من المعاقل التي تعقل بها أثر الحسن القديم، وبها جامع كأحسن ما أنت راء من الجوامع سعة وحصانة وبناء متقنا محكم الشكل، ولها صحن واسع بهي المنظر ومقصورة فيها عمل عجيب بتخريم الجبس وتنميقه وتقريصه في غاية ما يكون من الإتقان والإحسان وإحكام الصنعة والإمعان و"بالمسجد الجامع من المدينة المذكورة منبر عجيب، حسن المنظر، محكم الصنعة، رصع بالعاج والأبنوس ترصيعا غريب الصنعة والكل يقول الإسحاقي من عمل ملوك بني مرين".

أما الشاعر الباحث المرحوم أبو بكر البوخصيبي، فيقول في قصيدة جميلة تحت عنوان "على لسان رباط تازا":

وإن تـازة مذ كانت مساجـدها ... وهـي للعلـم والآداب ميـدان
صان الرشيد وإسماعيل حرمتـها ... وهز أعطـافـها المولى سليمـان
وتـوج الحسن الثاني حضارتها ... وفي الحضارات أشكـال وألـوان
به تيممت الأوطـان وانطلقـت ... تبنـي شعـارها تشييد وعمـران
قصورها الشامخات الشم من قدم ... كأنـها لمعـاني الفـن إعـلان

والجدير بالذكر هنا أن صحن المسجد الواسع البهي المنظر الذي أشار إليه الوزير الإسحاقي قد دفن فيه أحد الملوك، فقد جاء في كتاب "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" لمؤلف اندلسي من أهل القرن الثامن الهجري : "أن السلطان ابن الربيع سليمان بن الأمير أبي عامر عبد الله ابن السلطان أبي يوسف يعقوب كانت وفاته بتازة في مستهل رجب الفرد سنة عشرة وسبعمائة وهو مدفون بصحن مسجدها ولم ينقل".

وقد اعتنى الملوك العلويين بتازة اعتناء كبيرا وبالأخص من الناحية العلمية فحبسوا على خزانة المسجد الأعظم مخطوطات عديدة، وبالأخص سيدي محمد بن عبد الله الذي أوقف على هذه الخزانة العديد من المخطوطات القيمة بالإضافة إلى مولاي إسماعيل ومولاي سليمان رحمهم الله جميعا.

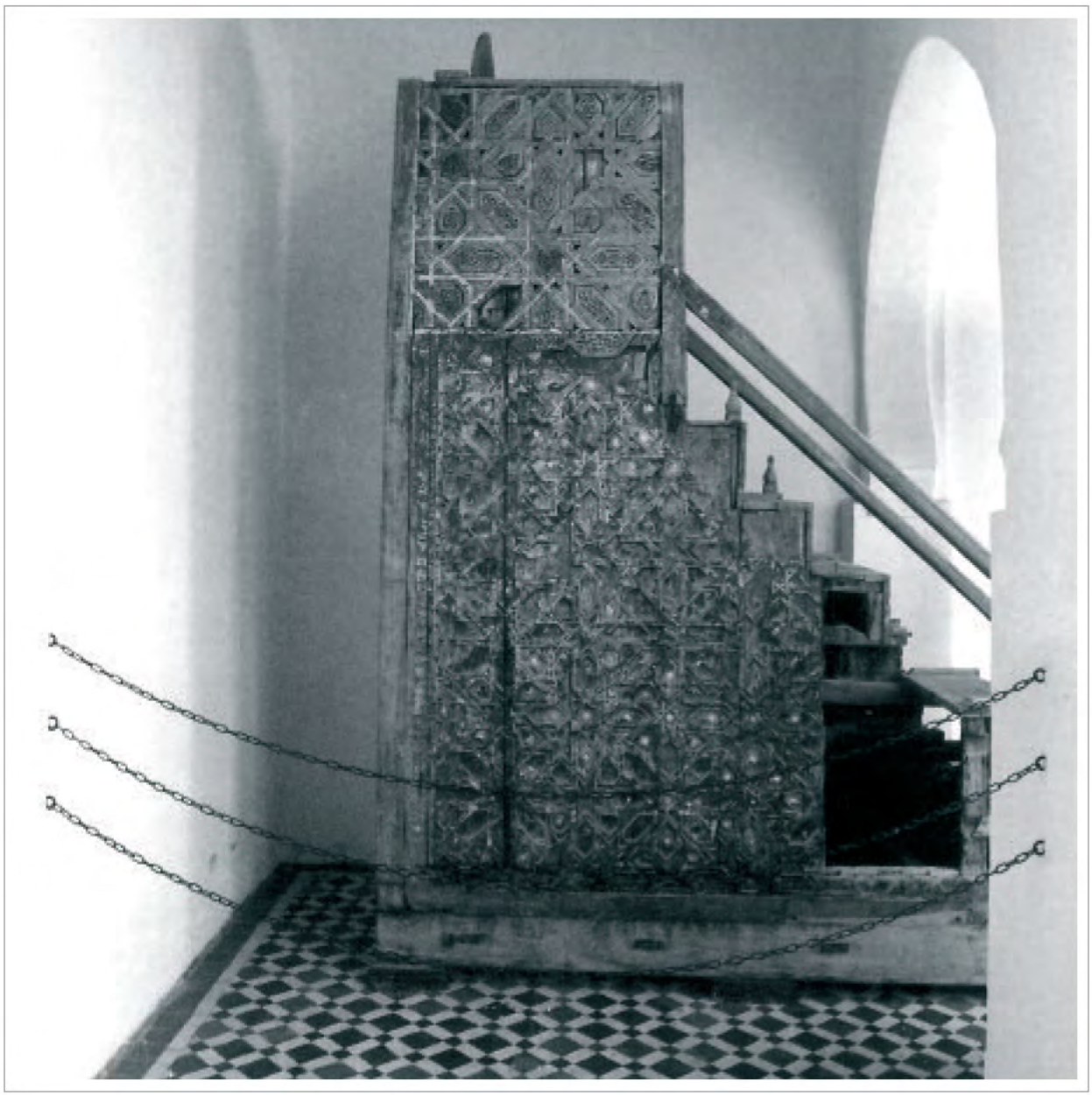

الثريا العجيبة:

وقد أمر أبو يعقوب يوسف بتعليق الثريا الفريدة من نوعها بالجامع الكبير سنة 694 هـ، وهي ثريا نحاسية ضخمة بديعة الصنع، يعجب المشاهد كثيرا بشكلها المخروط وبعظمتها، حيث يبلغ ارتفاعها بضعة أمتار وعرضها من الأسفل مترين ونصفا، وتزن 32 قنطارا، وعدد كؤوسها 514 وكانت تستعمل للإنارة، وبها نقوش يعجز اللسان عن وصفها نظرا للدقة والخبرة التي امتاز بها الصانع المغربي في ذلك العصر، وقد نقشت عليها آيتان: الأولى من سورة النور تبتدئ بعد التعوذ والبسملة من قوله تعالى "الله نور السماوات والأرض" إلى قوله تعالى "والله يرزق من يشاء بغير حساب" والآية الثانية من آخر سورة البقرة تبتدئ بعد التعوذ والبسملة من "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمومنون" إلى قوله تعالى "فانصرنا على القوم الكافرين".
كما نقش في أسفل دائرتها أبيات شعرية تعرف فيها بنفسها للزائر، تقول الأبيات:

يا ناظرا في جمالي حق النظر
ومتع الطرف في حسني الذي بهر
أنا الثريا التي تازة بي افتخرت
على البلاد فما مثلي الزمان يرى
أفرغت في قالب الحسن البديع كما
شاء الأمير أبو يعقوب إذ أمر
في مسجد جامع للناس أبدعه
ملك أقام بعيون الله منتصر
له اعتناء بدين الله يظهره
يرجو به في جنان الخلد ما ادخر
في عام أربعة وتسعون تتبعها
من بعد ست من المئتين قد سطر
تاريخ هذي الثريا والدعا لأبي
يعقوب بالنصر دأبا يصحب الظفر
لازال يوسف والأملاك تخدمه
تعنو لعز علاه أنفس الأمر

دار المخزن أو المشور:

وفي عهد الدولة العلوية الشريفة زحف المولى رشيد بجيوشه العتيدة إلى تازة وبعد أن أغار على دار ابن مشعل اليهودي واقتحمها عليه وصادر أمواله أقيمت له البيعة بها وبنى بها قصرا أسماه دار المخزن كما بنى بها مشوره الذي لا زال قائما لحد الآن

والجدير بالذكر هنا أن المولى رشيد كان قد آوى إلى عبد الله محمد اللواتي الصوفي بأحواز تازة والذي كان ينتحل طريقة الفقر وعنه شاهد ابن مشعل في هيئته الملوكية وقام بمساعدة المولى رشيد في القضاء على هذا المتآمر الفتان

سيدي عزوز

في هذه الصورة تظهر الباب الأولى الرئيسية للدخول إلى مسجد يسمى مسجد سيدي عزوز، وتصلى فيه الصلوات الخمس، وهو قريب من المسجد الجامع، وفي الداخل عن يمين هذا الباب يوجد ضريح هذا الولي، والطابع المغربي الأصيل واضح في هذه الباب لا يحتاج إلى تعليق، وقد بنيت وسط هذا الضريح قبة عالية مزخرفة سقفها زخرفة بديعة من الخشب، وله باب ثانية يدخل منها المصلون، وقد سميت إحدى الثانويات بتازة العليا بعد الاستقلال بثانوية سيدي عزوز.

ومن المؤكد أن بناء هذه القبة العظيمة والمزخرفة بعناية فائقة، لا يعقل أن يبنيها سكان تازة الأقدمون لشخص ليست له مكانة علمية، ومع مواصلتي البحث عن الأعلام الذين أنجبهم إقليم تازة لم أعثر لحد الآن على مرجع مطبوع أو مخطوط يعرف به، إلا ما قاله الوزير الإسحاقي الذي زار تازة أثناء رحلة الحج سنة 1143هـ، فقد قال في مخطوط له بخزانة القرويين تحت رقم: 1255/ك ما يلي:

"وزرنا بتازة من أوليائها الصالحين المشهورين سيدي محمد بن يجبش وسيدي عزوز والسيد علي بن بري التسولي النسب التازي الدار." وهذه فقرة لا تشفي غليل الباحث، بخلاف ابن بري المقرئ وابن يجبش الصوفي وهما مدفونان بتازة العليا وسيأتي الحديث عن ضريحهما الموجودين بتازة العليا مع الإشارة إلى بعض تراثهما الذي خلفاه، وقد نقشت فوق القوس المزخرف الآية القرآنية الواردة في سورة "الأنبياء" وهي قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" الآية 30.

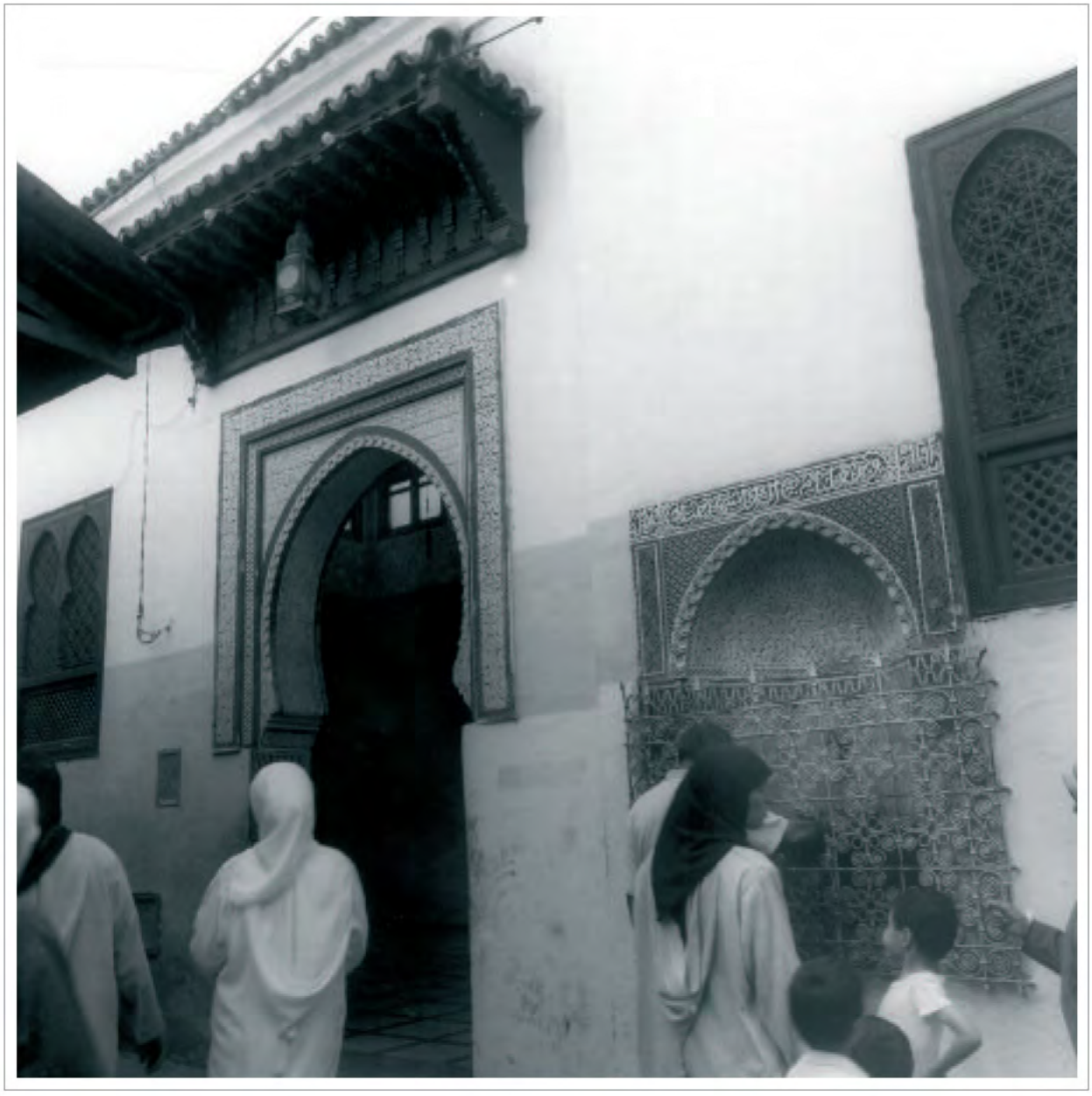

المدرسة الحسنية أو مدرسة المشور:

وفي ساحة المشور تظهر باب مدرسة قديمة أنشئت لطلبة العلم، إذ في العهد المريني ازدهرت الثقافة في تازة، بحيث أنشأ بها المرينيون مدارس لطلبة العلم ورتبوا بها المدرسين، يقول ابن مرزوق التلمساني في كتابه التاريخي" المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن" الذي يتناول فيه سيرة أبي الحسن المريني، وهو مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية تحت رقم 111 "ثم أنشأ أبو الحسن في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى والمغرب الأوسط مدرسة، وكانت هذه المدارس وما أنشئ بعدها مخصصة لإيواء الطلبة في تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وأنفا وأزمور وأسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان" وقد كتب على باب هذه المدرسة هذان البيتان:

لعمرك ما مثلي بشرق ومغرب يفوق المباني حسن منظري الحسن
بنائي لدرس العلم مبتغيا به ثوابا من الله الأمير أبو الحسن

وتسمى هذه المدرسة بمدرسة المشور، وقد أدخلت عليها إصلاحات هامة؛ وأثناء الإصلاح أعيدت كتابة البيتين المذكورين آنفا على الخشب فوق بابها كما كانا منقوشين من قبل، وقد وجد المشرفون على الإصلاح صعوبة كبيرة في قراءة البيتين المنقوشين على الخشب القديم، والطابع المغربي واضح فوق بابها. وقد تحولت هذه المدرسة إلى خزانة للعموم تابعة للمجلس البلدي.

كما تظهر في ساحة المشور على اليمين باب مدرسة كانت مخصصة للبنات، وقد تحولت في المدة الأخيرة إلى مدرسة قرآنية.

وفي آخر الساحة يظهر بناء على شكل أقواس قديمة تؤدي شمالا إلى مسجد الأندلس

البستيون:

وفي العصر السعدي وبالضبط في عهد المنصور الذهبي تم بناء برج البستيون الضخم الذي يشرف على الناحية الشرقية ويشتمل على عدة مستودعات للزاد والماء والعتاد الحربي، وبه ممر يبلغ خمسة أمتار وبداخله سارية عظيمة يطلق عليها لحد الآن "سارية السبع"، ويعد هذا الحصن أو البرج من أبرز منشآت السعديين الحربية.

ساحة أحراش

ساحة أحراش أو القلب النابض لمدينة تازة العتيقة حيث كان يقام السوق الأسبوعي قبل فترة الحماية. لكن مع دخول الاستعمار تحولت وظيفة هذه الساحة حيث تم في البداية استغلالها وتوظيفها لاستقبال مختلف المرافق العمومية التابعة للسلطات الفرنسية من مقر المقيم العام، مرفق مراقبة الشؤون المحلية، المحكمة، البريد، مقر البلدية، السوق المركزي، المدرسة الجديدة، المستشفى...إلخ. لقد تم توزيع هذه المرافق حول محور رئيسي يفضي إلى ساحة أحراش التي كانت تتوسطها نافورة مما جعلها تستقطب مختلف الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية مع التركيز على دور الموزع لحركة المرور. لقد تكيف قاطنة المدينة مع هذه الوظيفة الجديدة حيث تم استيعابها بشكل يتماشى مع الدور التكميلي لساحة أحراش مع "ساحة قبة السوق" داخل المدينة العتيقة. وللإشارة فإن هذه الساحة شهدت أحداث دامية خلال فترة الحماية حيث لعبت دورا مهما خلال المطالبة بالاستقلال حيث كان السكان يعبرون عن سخطهم للاستعمار وولائهم للسلطان إضافة إلى ذلك يجب أن لا ننسى أن هذه الساحة شهدت لقاءات سعيدة كاستقبالها للمغفور له محمد الخامس خلال زيارته لهذه المدينة إبان الإستقلال كما احتضنت مختلف الاحتفالات بالأعياد الدينية والوطنية التي كانت تقام بهذه الساحة مع العلم أن سكان مدينة تازة جعلوا منها رمزا في مناسبات الأعراس حيث كان من العادات والتقاليد التازية الطواف بالعروسين سبع مرات حول النافورة الرئيسية التي كانت تتوسط الساحة، إلا أنه بعد القيام بالتهيئة الحالية لهذه الساحة وتغيير ملامحها تم حذف هذه النافورة من الذاكرة الجماعية لقاطنة مدينة تازة.

البرج الملولب أو برج السراجين:

يعد هذا البرج تحفة معمارية في مجال المعمار العربي نظرا لشكله الملولب الدائري وتموقعه وكذا المواد المستعملة في بنائه. يقع هذا البرج فوق صخرة حجرية متقدمة لأسوار المدينة المطلة على الواجهة الغربية. لقد مكنه موقعه الاستراتيجي من مراقبة ليس فقط الواجهة الغربية عن كاملها بل كذلك جزءا من الواجهة الجنوبية. يبلغ علو هذا البرج حوالي 10 أمتار حيث تثبت الأبحاث الأركيولوجية أنه كان على شكل طابقين (أرضي وسفلي) مما يسمح من استعماله للمراقبة الدائمة للمجال الخارجي للمدينة العتيقة.

لقد شكل هذا البرج مع باقي الآليات الدفاعية الأخرى المحادية له من سور مزدوج وكذا الخندق المطلين على الواجهة الجنوبية شكلا من أشكال العبقرية في الدفاع وتمكين الأمن والأمان للمدينة على غرار باقي المدن والحواضر المغربية أو العربية إلا أنه وللأسف يوجد هذا البرج حاليا في حالة متقدمة من التدهور مما يستوجب التدخل لإنقاذه والاعتناء بهذه المعلمة الفريدة من نوعها على الصعيد الوطني

"باب الريح"

توجد الباب وسط السور الموحدي الذي بني خلال القرن الثاني عشر على مقربة من المسجد الأعظم حيث يطل على الجهة الغربية للمدينة والمشرفة على وادي الهضار والحقول والبساتين التي كانت تساهم في تزويد المدينة بالخضر والفواكه.
تقع هذه الباب فوق صخرة حجرية يصعب على الواقف تكهن وجود باب نظرا لصعوبة التضاريس واندثار الملامح الخاصة بهذه الباب التي لعبت دورا مهما في الربط بين المدينة العتيقة والجهة الغربية حيث كانت تدخل القوافل الآتية من فاس والنواحي لقد سميت هذه الباب بباب الريح نظرا للرياح الغربية القوية التي تهب على هذه الواجهة للأسوار ويمكن ملاحظة ذلك خلال فصل الخريف والشتاء. وحسب الباحث الفرنسي فوانو (*Voinot*) كانت قاعدة الباب على شكل مربع يعلوه طابقان مع العلم أن ولوج هذه الباب كان على شكل ممر ذي مرفق على غرار باقي الأبواب الأخرى لقد كان باب الريح يشكل المنفذ الوحيد على الواجهتين الغربية والشمالية لأسوار المدينة مما كان يمكنه من مراقبة الطريق المؤدية إلى فاس وكذا حماية عيون الماء والبساتين الموجودة بالمنخفض الأسفل للمدينة.
وحسب الحكايات الشعبية الشفهية تجزم بوجود هذه الباب خلال القرن التاسع عشر ومن المفترض أن يكون السلطان محمد الرابع قد مر بها سنة 1844م متجها إلى مدينة فاس (والله أعلم).

"عقبة بوقلال"

من منا لا يتذكر الأيام الخالدة لهذا المجال الذي ترك أثرا عميقا في ذاكرة قاطنة مدينة تازة خلال النصف الثاني من القرن العشرين. لقد كان فضاء بوقلال يستقطب جل المسافرين والراحلين عن مدينة تازة وعابريها.

لقد شكل فضاء بوقلال نقطة تحول لدى مختلف التازيين الذين تركوا مدينتهم وغادروها إلى مدن أخرى حيث كانوا يضطرون إلى المرور بهذا الفضاء لركوب الحافلة والمغامرة في اتجاه عالم جديد أو مدينة جديدة عليهم. من منا لا يتذكر تلك الحافلات ذات "الأنف الطويل" واللون الأحمر التي كانت تربط مدينة تازة بالمدن الأخرى.....إلخ.

مقهى الباشا

كانت مقهى الباشا - أيام الاستعمار تطل على مناطق خضراء تعجب الناظرين حيث أشجار الزيتون وأشجار الفواكه وغيرها تغطي مساحات واسعة، كما كانت أشجار أخرى غير مثمرة مغروسة على جوانب شارع مولاي يوسف العالي، وكان الاستعمار الفرنسي يمنع منعا باتا البناء في هذه البساتين الخضراء حفاظا على البيئة من التلوث.

وظلت هذه المناطق خضراء مدة طويلة بعد الاستقلال لكن زيادة عدد سكان المدينة اضطر المشرفين على الشأن العام إلى السماح بإحداث تجزئة سكنية في هذه المناطق الخضراء، دون سن قانون يلزم أصحاب هذه التجزئة ترك مساحات واسعة خضراء بدون بناء، واليوم حين تجلس في هذه المقهى أو تقف في أعلى باب الجمعة فإنك تجد كما في الصورة جل المناطق الخضراء قد تحولت إلى بنايات سكنية أو عمارات عالية، بعضها بقصد السكن وبعضها للاستغلال التجاري، وبعضها للمصالح الإدارية المستحدثة، وقد أدى هذا الزحف البنائي إلى تلوث البيئة بجميع مظاهرها، حيث انقرضت كثير من الأشجار المثمرة وكثير من الأشجار المظللة، ولا شك أن الهواء الذي نستنشقه - وهو ضروري لحاجاتنا - ليس نقيا مائة في المائة، بسبب تلوث الجو بدخان السيارات والشاحنات ومداخن المعامل والمصانع، فيجب أن نكثر من غرس الأشجار ونحافظ على الموجود منها، إذ يدخل في المحافظة على البيئة الاعتناء بغرس الأشجار، وقد اعتنى الإسلام بهذا الجانب، وقد وردت في القرآن آيات تشير إلى بعض منافع الأشجار وذلك حينما تحدث الله عن بعض مظاهر قدرته، فقال تعالى في سورة "يس" "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون"، أي أن الله تعالى هو الذي خلق هذا الشجر من ماء حتى صار أخضر ناضرا جميلا، ثم أعاده حتى صار حطبا يابسا توقد به النار

المسبح البلدي

تلكم المسبح البلدي، المعلمة التازية المتميزة الضاربة في القدم بفعل دورها الاجتماعي والرياضي والبيئي الذي طبع المجال العمراني بمدينة تازة.

من منا لا يتذكر المسبح البلدي والأبطال الذين ترعرعوا في أحضانه، وكذا مياهه العذبة المنبثقة من منابع الأعين الأطلسية نذكر من بينها "عين النساء"، حيث كان يعتبر هذا المسبح من بين أهم المسابح المغربية.

لقد شكل هذا المرفق الاجتماعي في وقت من الأوقات، بفعل الروابط التي نسجها مع ساكنة مدينة تازة المتنفس الوحيد في الترفيه والترويح عن النفس بفعل اندماجه في محيطه البيئي بعيدا عن الضوضاء ودخان السيارات.

مدينة التعايش والتسامح

يدل وجود مقبرة للمسيحيين مع كنيسة بالمدينة الجديدة، وبيعة لليهود بتازة العليا دلالة قوية على مدى تسامح الإسلام، بحيث توجد الصوامع للمسلمين بجانب الكنائس والبيع للمسيحيين واليهود.

وقد عاش أهل الكتاب : مسيحيون ويهود في بلاد المسلمين مصونة أموالهم وأعراضهم وأرواحهم وديانتهم تحت الرعاية التامة للدولة الإسلامية التي يعيشون في ظلها دون تعصب ديني أو عرقي وهذه صورة حديثة العهد، بدليل ظهور صومعة لمسجد بني بعد سنوات الاستقلال من طرف المحسنين التازيين.

أسطح المدينة العتيقة:

نضراً لموقع مدينة تازة في منطقة تتسم بطقس قاري حار صيفا وبارد شتاء فان الأسطح المباني العتيقة التي ينذر بها توفر الفراغات الكبيرة المفتوحة، وظائف أساسية عدة خلال فصل الصيف، فقد جرت العادة على استغلال الأسطح استغلالا خاصا في الأغراض المعيشية وخصوصا في فصل الصيف الذي جرت العادة أن تتحول السطوح نهارا إلى نشر الحبوب وما شابه ذلك وليلا إلى فضاء للجلوس والنوم هروبا من ارتفاع درجة الحرارة داخل البيوت التي تميز مدينة تازة.

كما نشير بالمناسبة إلى أن التقليد المعماري جرى على ستر السلم و السطح بسترة معمارية تجنبا للكشف وحفاظا على حرمة المنزل، مع أن وظيفة السترة للسلم أو السطح وظيفة أساسية ترتبط ارتباطا مباشرا بوقاية أهل المنزل من عيون الآخرين ووقاية الآخرين من عيون أهل المنزل، ومن ثم لا يمكن استغلال السطح من دون بناء سترة تحقق هذا الغرض

أبواب المنازل بالمدينة العتيقة

يمكن أن يكون كشف البيوت عن طريق أبوابها المؤدية إلى الأزقة بما يقابلها من أبواب المنازل المجاورة أو غيرها من الوحدات التي تمثل ضررا أكبر كالدكاكين وغيرها. ولذلك كانت الأحكام الفقهية المحددة لنظام فتح الأبواب. ومنعاً لما يمكن أن ينتج عن فتح أبواب المنازل المتقابلة على جانبي الزقاق سواء أكان أحد الكشف أم إعاقة استخدام "وسط الدار" أو الأفنية في أغراض الحياة اليومية اتجهت هذه الأحكام بصفة عامة إلى العمل على تنكيب أبواب المنازل بعضها عن بعض مع استعمال طريقة المدخل على شكل مرفق لمنع الرؤيا والولوج المباشرين إلى حرمة المنزل

وكان الحل في تخطيط المنزل بالمدينة العتيقة لتازة استخدام مداخل المنازل بطريقة تمنع هذا الكشف، وتمثل تخطيطها في هيئة دهليز أو ممر ملتو أو منكسر يؤدي إليه الباب المطل على الزقاق، ويوجد في أحد جانبي الممر أو الدهليز باب ثان يؤدي إلى الصحن أو وسط الدار

وبهذه الحيلة التي يتجنب بها المعمار أن يكون البابان على محور واحد. وبوجود هذا الممر الملتوي توفرت الحماية لمن بفناء الدار من أن يراه المار بالزقاق أو الواقف بأحد أبواب البيوت المقابلة.

"وسط الدار"

لقد اعتمد بالمنازل العتيقة التازية على الفناء الداخلي في توفير الطمأنينة والسكينة والعيش الكريم، وهكذا تم فتح النوافذ على الصحن لتوفير نسبة جيدة من الإضاءة والتهوية بمقاييس مناسبة للغرض والحاجة إلى ذلك مع تجنب فتح النوافذ على الشوارع أو الجيران وما ينجم عن ذلك من ضرر للبيوت المجاورة. ومن هنا ساد الفناء أو وسط الدار كعنصر رئيسي في تخطيط المنازل التقليدية بمدينة تازة على غرار باقي المدن الإسلامية و أصبح يمثل محور النشاط الرئيسي في المساكن والمرافق الأخرى.

والفناء أو وسط الدار عنصر أساسي في تخطيط المنزل المغربي الأصيل منذ أقدم العصور باعتبار ملاءمته المعمارية لمناخ المنطقة الحار فهو يساعد على خفض درجة الحرارة نتيجة الظلال الناتجة عن تقابل أضلاعه و تبخر نسبة مياه "النافورات" التي توضع فيه غالبا بالإضافة إلى أن انعكاس الأشعة على سطح الماء يقلل نسبة الامتصاص لأشعة الحرارة.

كما أن النباتات الموجودة بالفناء تساعد على تلطيف الجو لإحداث تهوية جيدة من دون تلوث، وبذلك تسود الفناء درجة حرارة منخفضة مما يجعله منطقة ضغط مرتفع بينما الخارج أي الزقاق يكون منطقة تفريغ (ضغط منخفض) وتبعا لذلك يتكون تيار هواء مستمر من الفناء إلى الخارج وبالطبع تكون التهوية دون أي تلوث علاوة على تلطيفها للجو الداخلي.

كما يعتبر "وسط الدار" عنصر اتصال وحركة للربط بين أجزاء المنزل المختلفة بالإضافة إلى استخدامه في الأغراض المعيشية المتنوعة، وفضاء منفعة جماعية حيث تم تطوير استخدامه وظيفيا وجماليا ليناسب وحياة الأسرة المسلمة التي تقضي معظم أوقاتها داخله وخصوصا النساء.

ومن ثم لعب المنزل دورا هاما ورئيسيا في حياة مجتمع المدينة، وانعكس هذا الدور على تخطيطه وإنشائه وأساليب زخرفته ونرى ذلك من خلال ما ورد في أوصاف بعض المنازل التقليدية التازية كدار لخصاصي ودار بلعيد ودار بن عصمان ودار التوزاني...إلخ.

شرفة عالية تطل على بساتين بوقلال وقد بنيت بالخشب المزخرف وزينت نوافذها بزجاج مختلف الألوان كما كانت أبواب المنازل تصنع من الخشب وأبواب البيوت ونوافذها تصنع كذلك من الخشب المزخرف وتزين بالزجاج الملون المعروف بالزجاج العراقي

كما تجلى ذلك في مدخل دار بنعصمان ووسطها وسقوفها الخشبية، وقد انقرضت هذه المظاهر بسبب زحف البنايات والعمارات العصرية.

دار لخصاصي:

وقد كان بعض الأغنياء يتنافسون في تزيين وسط دورهم وجدران منازلهم وسواريها بالزليج الممتاز كما هي هذه الدار وغيرها من المنازل الأخرى، كما يتنافسون في زخرفة الجدران بالجبس والأبواب الخشبية المنقوشة، وقد سمعت أثناء الطفولة - أن صاحب هذه الدار كان قاضيا، أين وما اسمه ؟؟..
ومن باب الاستطراد المحمود أشير أن عائلة الخصاصي عائلة علم وفقه وتفوق في علم الفلك، منهم الفلكي الناظم سيدي محمد الخصاصي، وأثناء البحث في مخطوطات المكتبة الوطنية للمملكة المغربية وجدت فيها كتابين مخطوطين لهذا الفقيه الفلكي:
الأول: "تحفة الألباب في استخراج حصص الأوقات بعلم الحساب" تحت رقم : 1753/د.
والثاني: "العطر المطيب في استخراج الأوقات من الربع المجيب" تحت الرقم السابق
والكتاب الأول يشتمل على منظومة في كيفية استخراج الأوقات بعلم الحساب وقد شرحها بنفسه، وجاء في آخر هذا الشرح : "وكان الفراغ من تبييضه عشية يوم الخميس تاسع شعبان عام سبعة وعشرين وثلاثمائة وألف" وجاء في آخر المؤلف الثاني ما يأتي: "إني فرغت من تبييضه يوم الثلاثاء سادس شعبان عام ستة عشر وثلاثمائة وألف بمراكش بعد زيارة سبعة رجال، أفاض الله علينا من بركاتهم آمين، وقت إقامتي بها مع سيدنا ومولانا عبد العزيز أيده الله بنصره، وجعلنا من الواقفين لدى نهيه وأمره، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير".
وقد نقلت هذين الكتابين بخط يدي من المكتبة السابقة الذكر
وكما أنجب إقليم تازة أعلاما في الفقه والفتوى والتصوف والشعر والنظم والمديح النبوي وعلم الفلك وعلم القراءة.

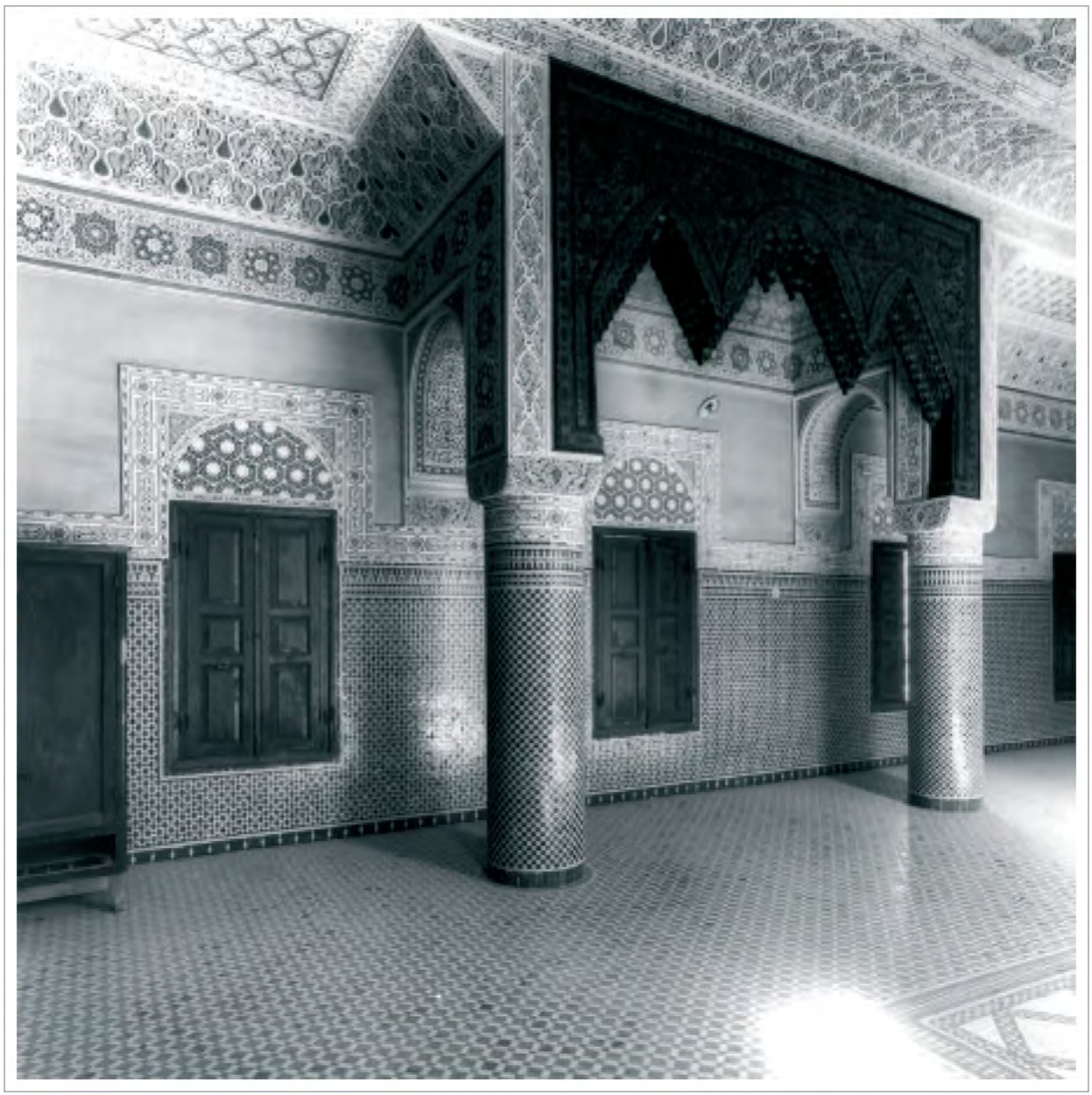

هذه الدار لا تختلف عن الدور القديمة في هذه المدينة العتيقة، حيث ترى النوافذ مصنوعة من قضبان الحديد، وقد زينت أقواسها بالقرميد الأخضر الذي كان في ذلك العصر، ولم يبق أحد يزين أبواب المنازل والنوافذ بالقرميد الأخضر إلا ما قل

دروب تازة العليا وأزقتها

يلاحظ أن تازة العليا فيها دروب وأزقة تحمل أسماء أعلام وشخصيات مثل درب مولاي عبد السلام ودرب الصيني وزنقة سيدي مصباح ودرب الطبيب وزنقة سيدي بلفتوح وزنقة لبريهي وغيرها، ومن المؤكد أن سكان تازة الأقدمين لا يسمون دروبهم وأزقتهم إلا بأسماء شخصيات علمية، لكن لا نعرف، لحد الآن- شيئا عن تاريخ بعضهم إلا درب الصيني ودرب الطبيب وزنقة سيدي بلفتوح.

هذا الدرب لا يختلف عن باقي دروب المدينة العتيقة، حيث السقف الخشبي وأبواب المنازل كذلك، والأقواس التي تتجلى في أكثر من درب كزنقة عبد الجبار القريبة من المسجد الأعظم وزنقة سيدي ميمون وزنقة رأس المسجد وزنقة سيدي مصباح...إلخ

على يمين هذا الدرب كان يوجد كتاب لحفظ القرآن الكريم أيام الحماية وقد أغلق منذ مدة، كما توجد في هذا الدرب دار متواضعة كان يسكنها العلامة السيد التهامي البلغمي الفيلالي، الذي كان قاضيا في هذه المدينة أيام الاستعمار الفرنسي، وكان يتطوع - رحمه الله - بإلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المسجد الأعظم، كما كان يصلي بالناس صلاة العيدين، ويلقي خطبتهما ارتجالا، وتوفي بعد الاستقلال تغمده الله برحمته الواسعة. وعبد اللطيف الفيلالي الذي تولى رئاسة الحكومة المغربية في عهد المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني- نور الله ضريحه - كان أحد أبنائه الذين علمهم تعليما عاليا. ثم لماذا سمي الدرب بدرب مولاي عبد السلام؟ من هو؟ الله أعلم.

درب الصيني:

يظهر أن تسمية هذا الدرب نسبت إلى فقيهين تازيين، فقد جاء في كتاب "نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني" تأليف محمد بن الطيب القادري ج 3 ص: 146 ما يأتي:

"فمنهم الشيخ محمد بن عبد الرحمان الصيني التازي، وصفه شيخنا سيدي محمد بن عبد السلام بناني في مشيخته بسر الزمان وآية العرفان، العالم العلامة الحبر الفهامة، المحدث الصوفي المفسر الفقيه الجليل، ثم قال: لقيته بمنزله من تازا وقرأت عليه أوائل الكتب الستة وصدرا من الشمائل ومختصر ابن الحاجب وخليل، وأجازني في جميع ما له من مروي ومسموع، ومفرق ومجموع بحق روايته لجميع ذلك عن شيخه مشايخ الإسلام أبي عثمان سعيد قدورة الجزائري عن شيوخه المشارقة كالبابلي وإبراهيم اللقاني وعيسى الثعالبي وغيرهم، وعن الشيخ سيدي محمد المقري من شيوخ الجزائر، وبفاس عن سيدي عبد القادر وسيدي حمدون المزوار وسيدي محمد بن احمد الفاسي وغيرهم، وكتب لي الإجازة بخطه، وتوفي - رحمه الله - سنة خمس عشرة ومائة وألف ودفن بتازة نفعنا الله به آمين"هـ.

وجاء في الكتاب نفسه : ص 388 ما يأتي:

"ومنهم الفقيه العالم الشهير سيدي عبد القادر بن الصيني القاطن بتازة ودفينها كان له صيت بها، ولم أقف على كلام أحد فيه فنورده فيه، توفي أواخر شعبان عام تسعة وأربعين وألف بتازة وبها دفن" ولا نعرف لحد الآن مكان ضريحهما. ويقع هذا الدرب قرب الزاوية الدرقاوية.

هو احمد بن شعيب الجزنائي الشاعر الفحل نزيل فاس، ويدل نسب هذا الشاعر على أنه من جزنايا القبيلة الموجودة شمال مدينة تازة، كما انتسب إليها أبو الحسن علي الجزنائي مؤلف كتاب "جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس" والذي كان بقيد الحياة سنة : 766هـ ويضاف إليهما الفقيه المشارك المفتي عمر بن عبد الرحمان الجزنائي نزيل فاس والذي كان حيا سنة: 911هـ.
قال في حقه أبو الوليد ابن الأحمر الكاتب الشاعر المؤرخ الذي عاش حياته العلمية والأدبية في فاس أيام بني مرين في كتابه "نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان" "ومدينة تازة مسقط رأسه ومتوقد نبراسه، وطرا على فاس فحمدت مسراه.....إلخ" وقال ابن خلدون عنه في تاريخه: "برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية، وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين...."، ثم قال "وقد نظمه أبو سعيد المريني في سلك الكتاب المهرة، وكان يقدم إليه الشيء الكثير تقديرا لما كان يقدمه من خدمات أدبية وطبية، فكان كاتبه وطبيبه، كما اتخذه أبو الحسن المريني كاتبا في ديوان إنشائه وطبيب بلاطه"هـ.
وقد اشتهر بالشعر أكثر من اشتهاره بالطب، وشعره يوجد ضمن بحث خاص أعددته عن هذا الشاعر الفحل ضمن سلسلة أعلام إقليم تازة. وفاته : يقول الأستاذ الباحث المرحوم السيد محمد المنوني في كتابه "ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين" ص: 324، باختصار: "من المعروف أن أبا الحسن المريني قام بحملة وحدوية قصدا لتوحيد تونس مع المغربين الأوسط والأقصى، وقد اصطحب العاهل المريني بهذه المناسبة مجموعة ضخمة من أعلام المغربين".
ولم يعتن المؤرخون باستيعاب أسماء هذه الهيئة العلمية، ونعرض هنا أسماء المعروفين من أهل المغرب الأقصى حيث لا يتجاوز عددهم خمسة أعلام، موزعين بين أربع جهات مغربية: فمن مدينة سبتة عبد المهيمن الحضرمي ومن مكناس: محمد بن الصباغ الخزرجي ومن فاس: محمد بن علي بن سليمان السطي وأحمد بن محمد بن علي الزرواليي الأصل ومن تازة، أحمد بن شعيب الجزنائي ثم قال: "وقد قضى الله تعالى أن غرقت جميع أساطيله التي كانت تقارب الستمائة من السفن، ونجا السلطان على لوح من ألواح السفن المتكسرة وغرق من كان معه من أعلام المغرب نحو أربعمائة عالم كان أبو الحسن لا يستغني عنهم، فكانت خسارة علمية لم تعوض، وكان من جملة الغرقى في ذلك الشاطئ التونسي أحمد بن شعيب الجزنائي سنة 749هـ وقيل 750هـ".

وإلى هذه الحادثة يشير المرحوم أبو بكر البوخصيبي في قصيدته "على لسان رباط تازة" حيث يقول:

قولي لتونس ردي ما أخذت فلي
في قعر بحرك أبطال وفرسان
غرقى هناك ولكني أحن لهم
وكيف لا وهم للعلم أركان
كم فاخرت بهم فاس وإخوتها
وهم بفاس يواقيت ومرجان
كانت بهم حلقات الدرس من قدم
تسمو وكان لها من ذكرهم شان
أين الطبيب شعيب ضاع وا أسفي
أن ضاع من شعره الرقراق ألوان
والعالم الماجد السطحي بجانبه
كأنه وهو في المحراب إيمان[1]
شيخ ابن خلدون يكفينا ونحن لنا
مع ابن خلدون آثار وبنيان

[1] يشير الشاعر بقوله: "والعالم الماجد السطحي بجانبه" إلى الفقيه المفتي محمد بن سليمان السطحي الأوربي نسبة إلى أوربة. وهي قبيلة بالبرانس بنواحي تازة، كان حظي المكان عند أبي الحسن المريني والمدرس في حضرته والمفتي في بعض الأوقات، وقد اصطحبه العاهل المريني مع جماعة من العلماء حين سفره لتونس وقد مات غريقا مع من غرق من أكابر العلماء في ثامن ذي القعدة عام: 749 هـ وقيل 750هـ وقد أشرت إليه في البحث الخاص الذي أعددته تحت عنوان: "تراجم مختصرة لبعض فقهاء إقليم تازة".

زنقة سيدي بلفتوح:

هذا الذي سميت به هذه الزنقة بتازة العليا لا شك أنه هو أحمد بن فتوح التازي الناظم أحد متصوفة إقليم تازة. لم أقف على ترجمة له، وإنما ورد ذكره في مصادر ثلاثة :
المصدر الأول في كتاب "المرقى في مناقب سيدي محمد الشرقي" المخطوط بالخزانة الحسنية رقم : 2888 والثاني في كتاب "الروض اليانع الفائح في مناقب محمد الصالح" المخطوط بالخزانة الحسنية رقم : 61 والمصدر الثالث في كتاب "أعلام المغرب العربي" الجزء السادس "أحمد" وهي السلسلة التاريخية التي يصدرها تباعا الباحث المغربي السيد عبد الوهاب بنمنصور عضو أكاديمية المملكة المغربية.
لابن فتوح التازي قصيدتان في المديح النبوي ومقصورة أولى في نسب محمد الشرقي وثانية في ذكر سلسلة أشياخه وقصيدة في مدح هذا الولي بالنسبة للمديح النبوي وجدت له قصيدتين مخطوطتين بالخزانة الحسنية في آخر كتاب "تعليق الخمائل" لعبد الله الجرسيفي التازي رقم 4440 وقد جاء في آخر الكتاب المذكور ما يأتي:"من أمداح الولي الصالح سيدي أحمد بن فتوح الفتوحي توفي يبوجعد رحمه الله وذكر له قصيدة بلغ عدد أبياتها 97 بيتا وقصيدة ثانية بلغ عدد أبياتها 30 بيتا، والقصيدة الثالثة 27 بيتا والرابعة 46 والخامسة 40 بيتا".
وقد جمعت هذه القصائد كلها في بحث خاص أعددته ضمن سلسلة التعريف بأعلام إقليم تازة، وقد جعلت عنوان هذا البحث : أحمد بن فتوح التازي شاعر الزاوية الشرقاوية.
أما الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور فقد قال عنه في كتابه السابق الذكر ص 241 "أحمد بن فتوح التازي فقيه أديب من المغرب الأقصى، ويرجع النسب الذي اشتهر به انه من أهل مدينة تازة، كان من مريدي زاوية أبي الجعد وفي شيوخها الشرقاويين، ألف كتابه المسمى: "التعريف المفيد في مناقب الشيخ الصالح بن المعطى وجده القطب أبي عبيد" ثم قال: "وصفه عبد الخالق بن محمد العروسي في كتابه : "المرقى في مناقب سيدي محمد الشرقي" بالأخ الفاضل وبالعالم العلامة، النحرير الأديب الفهامة، ونقل عنه في الكتاب المذكور بعض أخبار الزاوية الشرقاوية وشيوخها ومن لهم من المريدين".

وقد عرف في هذا الكتاب بالشيخين الجليلين : أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الشرقاوي العمري المتوفى سنة : 1010 هـ موافق: 1601م المعروف بأبي عبيد الشيخ الشهير، وبحفيده أبي عبد الله محمد المدعو الصالح بن المعطي بن محمد المذكور المتوفى 1139هـ موافق: 1726م (عن معجم المؤلفين)، ومحمد الشرقي هذا كان بقيد الحياة عام 1113 هـ 1701م، وإذن يكون ابن فتوح حيا في هذه الفترة، ولازلت لم أطلع على هذا الكتاب... ثم جملة "توفي يبوجعد رحمه الله" ذكرتني بعدة شخصيات علمية تنتمي إلى إقليم تازة توفيت خارجها، وهذه بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

1 - الفقيه العلامة ابن البقال المتوفى بفاس 125 هـ ودفن بباب الفتوح.
2 - الشاعر الصوفي إبراهيم التازي اللتني دفين وهران
3 - الشيخ احمد زروق البرنوسي دفين مصراتة بليبيا.
4 - الفقيه النوازلي علي بن عبد السلام التسولي دفين فاس
5 - أبي عبد الله محمد بن الحسن الجاصي نزيل مكناس ودفينها.
6 - عيسى بن عمران التسولي قاضي الجماعة بمراكش، قال عنه صاحب "المعجب.." عند ذكر قضاة يوسف بن عبد المومن الموحدي ما نصه قضاته : "عبد الله المالقي ثم عزله وولى بعده عيسى بن عمران التازي من أهل رباط تازا من قبيلة يقال لها التسول من البربر، ثم قال: "يرجعون إلى زناتة"، وكان له أولاد ما منهم إلا ولي القضاء وهم :
- علي وكان رجلا صالحا ولي في حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ثم عزل عنها وولي مدينة تلمسان الخ".
- صالحة ولي قضاء تلمسان
- ويوسف تركته قاضيا بمدينة فاس وبلغتني وفاته وأنا بمكة سنة 620 هـ.
- وموسى قاضي الجماعة في وقتنا.

وجاء في كتاب "بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس" : "عيسى بن عمران قاضي الجماعة فقيه حافظ....ولي قضاء الجماعة، ولم تطل مدته فيها وتوفي بمراكش وهو يتولى قضاء الجماعة لخمس بقين من شعبان سنة 578 هـ.

7 - الفقيه إبراهيم التسولي الملقب بابن أبي يحيى، تحدثت عنه عدة مصادر منها ما جاء في كتاب "درة الحجال" ج1 ص 95 : "أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي التازي عرف بابن أبي يحيى الفقيه العلامة. توفي بفاس 749هـ".

يقول بعض المؤرخين : إبراهيم التازي أحد الأربعة الصالحين: محمد الهواري والحسن أبركان وأحمد بن الحسن لغماري. وقال المرحوم الباحث أبو بكر البوخصيبي في قصيدته تحت عنوان على لسان رباط تازا :

فكـــان يحيـــى إذا يدعـو لمـأثـرة
لبـــاه مفخـــرة الدنـيـا أبـركـان
والعـالم الصـوفي التـازي بجـانبـه
وهـــو في نصرة التوحيد نشـولن
من "التسـول" رعـاها الله فهـي بـه
سكرى ووهران حتى الآن سكران
أعطيت وهـران إبـراهـيم وهـو بها
كما بنى اليوم ما أعطت تلمسان
سلوا تلمسان عن من منهم عرفت
وضم من صلحاء القـوم بستـان
مـن مثـل زروق فيـما يستـدل بـه
وهـو للبحـث والتـأليـف عنـولن
وللتصـــوف فـــرد لا يضـــارعـــه
فيـما يفـوه به أنـس ولا جـــان

ضريح ابن يجيش التازي الشاعر الصوفي المجاهد

لقد أنجب إقليم تازة في مختلف العصور عددا من الفقهاء والمفتين وأكابر المقرئين ورجال التصوف الكبار، كما أنجب مجموعة من الناظمين والشعراء وبالأخص الشعراء الذين جمعوا بين الشعر والتصوف مثل:

1 - إبراهيم التازي اللتني الشاعر الصوفي الرحالة المتوفى بوهران سنة 866 هـ والذي خلف من الشعر الصوفي لحد الآن أكثر من مائتي بيت.

2 - أحمد بن فتوح التازي الذي كان حيا أواسط القرن الثاني عشر الهجري، وقد ترك من الشعر 240 بيتا في المديح النبوي ومدح أولياء الزاوية الشرقاوية التي كانت له علاقة وثيقة برجالها وتوفي ببوجعد.

3 - أحمد الحبيب اليعقوبي الرشيدي الشاعر الصوفي دفين رشيدة.

4 - أحمد زروق البرنوسي الشاعر الصوفي الذي خلف ما يقرب من مائة مؤلف ما بين شروح وقصائد في الفقه والتصوف وغيرهما.

5 - الشاعر المجاهد بأدبه أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم الشهير بابن يجيش التازي المتوفى بتازة عام : 920 هـ ودفن بالزاوية الجبشية التي تحمل اسمه بتازة العليا.

وإذا أردنا أن نصف ابن يجيش بالتعبير العصري فإننا نقول: إنه كان شاعرا مجاهدا سخر قلمه ومؤهلاته الفكرية وثقافته الإسلامية الواسعة للدفاع عن قضايا المغرب كغيره من الأدباء المغاربة المجاهدين، يقول صاحب "الاستقصاء" ج 4 ص 118 : "ولما نزل بأهل المغرب ما نزل من غلبة عدو الدين واستيلائه على ثغور المسلمين، تبارزوا في جهاده وقتاله، واعملوا الخيل والرجل في مقارعته ونزاله، وتوفرت دواعي الخاصة منهم والعامة على ذلك، وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك، فكم من رئيس قوم لنصرة الدين غيرة واحتسابا، وكم من ولي عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابا، حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون، وبلغ الله تعالى جميعهم من الثواب ما يرجون.".

"وقد ألف الناس في ذلك العصر التأليف في الحض على الجهاد والترغيب فيه، وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثروا ونظم الأدباء والشعراء فيه ونثروا، فممن ألف في ذلك الباب فأفاد الشيخ الصوفي ابن يجيش التازي"

وصاحب "الاستقصا" يشير بهذه الكلمة الموجزة إلى الكتاب الذي ألفه ابن يجيش للحض على الجهاد وذيله بقصيدة رائعة يحض فيهما على الجهاد والاستشهاد لتحرير الشواطئ المغربية المحتلة والذي عنوانه: "تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الزاكية وقمع الشرذمة الطاغية".

DERB ZAOUIA
EEL GABCHE
درب الزاوية على الكبش

وإذن لم يكن ابن يجيش متصوفا مبتعدا عن المجتمع المغربي، غير مهتم بمشاكله ولا منفردا في زاوية يردد فيها الأوراد، والوطن المغربي تئن أجزاء منه تحت ضربات المحتلين، بل عاش أحداث وطنه وتتبعها بفكره وقلبه ولسانه، وسجلها في هذا الكتاب الذي ختمه بقصيدة بلغت 168 بيتا.

وكيف يقبل ابن يجيش أن يظل منعزلا عن هذه الأحداث الوطنية، وهو يعلم علم اليقين مكانة المجاهد عند الله تعالى، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للصحابي الذي شاقته العزلة حين مضى إلى شعب (مسيل الماء في بطن أرض) فيه عيينة من ماء عذبة وحدثته نفسه بأن يجتنح إلى تلك البقعة، وأن يقبل على ربه، فما يفتر عن ذكره في صباح وأصيل: "لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة اغزوا في سبيل الله من قاتل في سبيل الله فوق ناقته وجبت له الجنة" رواه الترمذي.

والحديث غني عن كل تحليل أو تعليق.

وتطبيقا لمضمون الآثار التي تبين الفضل العظيم والثواب الكريم الذي أعده الله لمن يحرض على الجهاد والاستشهاد، وشعورا منه بالواجب الملقى على عاتق العلماء العاملين بعلمهم، واستجابة للروح الإسلامية العميقة التي تأبى الذل والهوان للوطن الإسلامي العام فما بالك بالوطن الإسلامي الخاص؟ فقد ارتفع صوته قويا يحض على الجهاد والاستشهاد لتحرير الشواطئ المغربية التي احتلت من طرف البرتغاليين فقد احتلت أصيلا سنة 874 هـ والجديدة عام 910هـ..

إذن فظروف هذا النص نثرا وشعرا - كما يقول أساتذة الأدب - هي احتلال بعض الشواطئ المغربية، وقد انفعل ابن يجيش مع هذا الواقع المرير، وجعل التحريض على الجهاد والاستشهاد بالقلم واللسان هو ورده ووظيفته، والدعوة إلى الثورة المسلحة لافتكاك الثغور المحتلة هو الشعار الذي ظل يردده.

ولاشك أن الجهاد باللسان يمثل مظهرا من مظاهر الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد هجاه قوم من قريش: "ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم" فقال حسان بن ثابت: "أنا لها يا رسول الله" وأخذ بطرف لسانه "والله لو وضعته على صخر لفلقه وعلى شعر لحلقه"، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كيف تهجوهم وأنا منهم؟" فقال: "أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين"، وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه".

فقد قال - رحمه الله - في آخر كتاب "الجهاد":

"وها أنا أقبض العنان عما خُفي به القلم واللسان، فلما فرغت من إنشاء هذه الجملة، التي تكون - إن شاء الله - سببا لتنبيه الخلق مما هم فيه من الغفلة، تأملت حال الإخوان وما هم فيه من الكرب والذلة والهوان، أسأل الله العظيم أن يفك أسرهم، وأن ييسر لسبيل النجاة أمرهم، فأدركتني عليهم شفقة الإيمان، وترنمت بين جوانحي بلابل الأشجان، وهطلت بواكف عبرتها العينان، وأراد أن يترجم لساني عما أضمره جناني، بنظم قصيدة جامعة لما تقدم من تلك المعاني، وقلت : لعل النظم أوقع في النفوس، وأقرب لأن يصغي إليه وتنحط إليه الرؤوس، فقلت على الحال ونطق اللسان وقال:

أبى القلب سلوانا ومن لي بسلوة ... ونومي جفا من اجل ما بي مقلتي
وصرت حليف الحزن مما كتمته ... وبين ضلوعي مثل كير بجمرة
وللقلب ما بين الجوانح زفرة ... ودمعي على الخدين يحكي لمزنتي
ولم أستطع صبرا وكيف يصم لي ... وقد هتكت من ديننا كل حرمة
وشاركنا الأعداء في قطر غرينا ... وقد اخذ واجل البلاد البهية
وقد أرعبت تلك السواحل منهم ... وصاروا يؤدون الخراج كجزية
فهذا هوان واحتقار وذلة ... وعار شنيع ثم قلة حيلة
فصرت إذا أدعو أرغب راجيا ... ولم في الذي أرجوه اصدق لهجة
وأندب أهل الجد والعزم قائلا ... عليكم بنصر الدين يا خير أمة
وقوموا بجد للعلا فلقد خُفوا ... عليهم من القهار أعظم لعنة
أيا أوليا النصر يا آل غرينا ... بكم تضرب الأمثال في كل بلدة
وانتم الشجعان في شدة الوغى ... وانتم هم الأبطال عند الحقيقة
فأين أسود الغرب أين رجاله ... وأين ذوو الخيل العتاق الأعزة ؟
وأين ذوو البأس الشديد الذين هم ... لهم في الحرب أعظم نجدة ؟
أيا معشر الإخوان هذا عدوكم ... خُفر واعتدى والقلب في حال كربة
إلا من له في الدين عزم وقوة ... ويذهب عنا ما بنا من معرة
إلا من يبيع النفس في طلب العلا ... ويرغب في نيل الأمور السنية
إلا من له قلب صبور وهمة ... ويرقى لأعلى الصفوة الملكية
ويدرك في الدارين عزا ومنعة ... وملكا كبيرا في جوار الأحبة
فبيعوا من الرب الكريم نفوسكم ... وأموالكم تحظوا بخير وعزة
وتستخلصوا إخوانكم من يد العدى ... وتستخرجوا ما قد سبوا من ذخيرة
أعدوا لهم من قوة كل عدة ... وصولوا عليهم باجتهاد وحرقة
وقد وعد المولى بنصر عباده ... إذا نصروا الدين المتين بقوة
ولا تدبروا عند القتال فمن يمت ... شهيدا ينل من كل خير ونعمة
ويدرك رضوان الإله ولم يذق ... عقابا ولا هولا غدا دون مرية
ويعطى من الخيرات ما قد يريده ... وتلقاه الحور الحسان بتحفة
كذا قال خير العالمين محمد ... هو الصادق المصدوق في كل قصة

ثم يختم شاعرنا الصوفي المجاهد قصيدته بهذا الدعاء الخالص

فنسأل مولانا بجاه نبيه خلاصا وتوفيقا لكل فضيلة
ولن ينقذ الإخوان من حال كربهم وينجيهم من كل خوف ومحنة
ولن يهلك الأعداء حتى يبيدهم ويجعلهم فيئا لأفضل أمة
وينصر جيش المسلمين بعزه ويجمع منهم كل شمل مشتت
وعم بغفران جميع ذنوبنا بجاه شفيع الخلق في كل زلة
عليه صلاة الله ثم سلامه متى رنت الأطيار في كل دوحة
وأصحابه واللائذين بحبه عليهم من الرحمن أزكى تحية

اللهم يا من له القوة والاقتدار والعزة والانتصار ويكور النهار على الليل والليل على النهار، إنا توجهنا إليك بجاه نبيك المصطفى وأصحابه الغلفا أن تفتح لنا من خزائن رحمتك بابا لا تغلقه معاصينا، ولن تجود بفضلك وكرمك على مطيعنا وعاصينا، ولن تدخلنا في حزب أولئك المهتدين، ولن تكفينا شر أعدائك المعتدين، ولن تبلغ قصدنا في تفريج ما أهمنا من أمور الدنيا والدين، إنك على كل شيء قدير....الخ".

وهذا الكتاب مع القصيدة نشرهما المرحوم الباحث السيد أبو بكر البوخصيي من كتابه القيم "أضواء على ابن يجبش التازي" المطبوع سنة 1976م.

وقد قال المرحوم الباحث السيد محمد المنوني في كتابه "المصادر العربية لتاريخ المغرب" ج 1 ص 127 عن هذا الكتاب "يمثل في إطار عصره لونا من الأدب البطولي، حيث كتبه ابن يجبش امتعاضا لأزمة الشواطئ المغربية، ومن بينها أصيلا التي كانت حديثة العهد بالاحتلال، فيتجاوب المؤلف مع هذا الواقع، ويكتب خطابا مطولا في قسميه: المنثور والمنظوم، يذكر فيه بما يعانيه الأسرى المسلمون بالأندلس وأصيلا من صنوف التعذيب الوحشي، ثم يوجه النداء إلى العاطفة الإسلامية والنخوة المغربية، داعيا في نفس طويل إلى الجهاد لتحرير الثغور المغربية ووقف المد الاستعماري، كما مدح هذا الكتاب مؤلف "دوحة الناشر"..... بقوله "فهذا الشيخ ممن ساد فأجاد، واتكأ عليه الزمان فكان نعم الوساد، وقد وقفت له على تأليف ألفه في الحض على الجهاد في سبيل الله تعالى فكان ينبغي أن يتناول باليدين، ويكتب دون المداد باللجين أودعه نظما ونثرا".

يقول شاعرنا ابن يجيش التازي في هذه القصيدة التي تشتمل على أدعية صادقة:

إليك رجائي يا مفرج كربتي ... ويا عالما لم تخف عنه خفيتي
ويا من نقضت العهد بيني وبينه ... مرارا فلم يظهر إلى الخلق زلتي
فيا رب بالمختار من خير أمة ... سألتك فاقبل يا إلاهي دعوتي
قني شر حاسد ومن شر ماكر ... وخيب ظنون القاصدين مضرتي
وكن لي على الأعداء يارب ناصرا ... وخذ بيدي يا رب في كل شدتي
وبلغ مرادي في جميع مقاصدي ... من الخير واصفح ربي عن كل زلتي
فأنت الذي ترجى لهولي وشدتي ... وفيك الشفاء من جميع المضرة
تجيب لمن يدعوك سرا وجهرة ... أيا سامع النجوى ومبصر حالتي
توسلت باسمك العظيم الذي به ... تكونت الأشياء فارحم شكايتي
وكن لي في كل المآرب كلها ... أيا حقي الألطاف فاقض لي حاجتي
وخر لي يا المختار يا باعث الورى ... بجاه رسول الله خير البرية
وأصحابه والآل والرسل كلهم ... أجب لي دعائي يا كريم العطية
وثبت على التوحيد عقلي ومنطقي ... لدى سكرات الموت ثم بحفرتي
وصل على قطب الوجود محمد ... صلاة الرضى تمحو بها كل كربتي

هذه قصيدته التي عارض بها منفرجة ابن النجوى

اشتدي أزمة تنفرج ... قد أذن لضيقك بالفرج
مهما اشتدت بك نازلة ... فاصبر فعسى التفريج يجي
مولاك ارغب فإجابته ... للمضطرين على درج
وألح عليه بمسألة ... فهو الجواد فاسأل وهج
وأخلص فيما تدعوه وقل ... يَسر عُسري وأزل حَرَجي
لا حيلة لي لا قوة لي ... إلا بك يا محيي المهج
نفسي قنطت لما مرضت ... يدي بسطت لك من وهج
يا ذا الكرم بك معتصم ... من ذي ألم ممتزج
مولاي عبيدك في كرب ... نفس كربا عن قلب سمح
ضاقت حيلي آمن وجلي ... بلغ أملي عجل فرجي
اذهب ألمي وأزل سقمي ... ثبت قدمي وأقم حججي
برد حرقي وأزل قلقي ... حسن خلقي وابن سرجي
من تشف شفى من تكف كفى ... فاللطف خفي فعساه يجي
بلغ أربي وأزل تعبي ... عجل طلبي وأجب لهجي
وارحم ضعفي واغفر زللي ... واسمح عما بي من عوج
وارددْ عني من يحسدني ... من ذي حقد أو منزعج
ما أسعد من نال مُنا ... هُ ومن يطمع فيما يهج
ويخالف ما يهوى ويسا ... بق من يرقى فوق السرج
من جاهد نفسه في عمل ... يرضاه حبيبه يبتهج
وينال غدا رتب الأحبا ... ب ويحظى مودته بالحيا البهج
من يطمع نيل مودته ... من باب رضاه إذن يلج
ويخالص في نيل المقصود ... بنفسه من دون الحرج
بمتابعة المختار أمام الخلـــق ... غدا يوم الوهج
بادر برضى المحبوب تفز ... بجميع القصد وتبتهج
في خدمته أفنى جسدي ... فعسى يبريني من سمج
ويحليني بحلي الأحبا ... ب ويعصمني فأكون نجي
ويهنيني لمقامهم ... فهو المأمول لمبتهج
وهم الأكياس بما فعلوا ... لما اختاروا بذل المهج
ورضوا بالدون من الفاني ... محبوب الكل من الهمج
فهموا مقصود إشارته ... لم يشغلهم حسن الدعج
وله صدقوا وبه نطقوا ... لما سبقوا للمنعرج
وله عرفوا وبه كلفوا ... حتى تلفوا خوف العرج

غرقوا في بحر محبته فاستخلصهم من كل شجن
شربوا سكروا غابوا ذكروا طربوا طفروا بعلا الدرج
فبحضرتهم مع سيدهم من برحهم صبح البلج
لما عرفوا ما قد طلبوا هان المتروك من السمج
فبحرمتهم وخدمتهم ومحبتهم سهل نهجن
واقطع عني ما يقطعني عن بابك من فتن الهرج
وامنح لعبدك بغيته أنقذه _بفضلك- من لجج
واعنه على مرضاتك وافتح للسائل باب الفرج
بشفيع الخلق وسيدهم يا عالم سر في حلج
فعليك صلاتك دائمة وصحابته أبدا الحجج

وقد ختم ابن يجيش هاتين القصيدتين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم رجاء استجابة الله لدعائه، فقد روي عن سيدنا علي كرم الله وجهه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدعاء محجوب عن الله حتى يصلى على محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بلغني أن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ذي المكانة الشريفة والمرتبة المنيفة.

مسجد موريطانيا أو مسجد الحسن الثاني:

كانت المدينة الجديدة أيام الاستعمار الفرنسي لا يوجد بها أي مسجد، حيث أغلب سكانها غير مسلمين.
وهذا المسجد هو أول مسجد بني في المدينة الجديدة بعد الاستقلال وقد بنته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ومن باب الأمانة التاريخية يجب أن أشير إلى أن المجلس البلدي لمدينة تازة المنتخب سنة 1958م - والذي كنت عضوا فيه - قد تطوع بقطعة أرض كانت في ملكه وهي التي بني عليها هذا المسجد ودشن سنة 1966م.
وبسبب النمو السكاني في المدينة الجديدة تتابع بناء بيوت الله من طرف المحسنين التازيين، فتم بناء مسجد السنة ومسجد القدس ومسجد التقوى على سبيل المثال، بحيث كلما أنشئت تجزئة سكنية إلا وأسرع المحسنون على اختلاف مستوياتهم المادية لبناء مسجد بها، وقد بلغ عدد المساجد التي بناها المحسنون التازيون في تازة العليا والمدينة الجديدة إلى عشرة مساجد آخرها مسجد الإمام مالك قرب تجزئة سكنية حديثة العهد. وهؤلاء المحسنون الذين تطوعوا ببناء بيوت الله - كانوا - ولا شك - متأثرين أولا :
بقول الله تعالى في سورة "المزمل": "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا" الآية 20 وثانيا بما ورد في صحيح مسلم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" وما روى البخاري ومسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من بنى مسجدا بنى الله له مثله في الجنة" وفي حديث آخر للطبراني أن النبي صلى لله عليه وسلم قال: "ابنوا المساجد، فمن بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة". ويقول بعض الشعراء :

إن المساجد في الوجود رسالة — بيت الإله وكعبة العرفان
فيها العلوم لمن أتاها ناهلا — إن العلوم دعائم العمران
فيها الخلاص لمن أتاها تائبا — فيها التقى والطهر للوجدان
فيها الأمان لمن أتاها خائفا — فيها الشفا ونعمة الرضوان
لا خير إلا أن نعود لمسجد — فيه التقى والفوز بالإيمان
سنعوذ عن وحي السماء بروحنا — سنعوذ عنه بحكمة وبيان
سنكون جندا للدين مخلصا — سنكون للأخلاق كالبنيان

ابن بري التسولي التازي إمام القراء

هو أبو الحسن علي بن محمد الشهير بابن بري إمام القراء المغاربة ومعتمدهم في علم القراءات، وجميع المراجع المطبوعة والمخطوطة تذكر أن وفاته كانت بتازة عام 730هـ أو 731 هـ موافق 1330م، وأن ضريحه يوجد فوق ربوة، وبنيت فوقه قبة، ولا يعرف لحد الآن متى بنيت ؟ وهذا الضريح كان مشهورا عند سكان تازة، وحين أنشئت أول ثانوية بالمدينة الجديدة بعد الاستقلال سميت بثانوية علي بن بري.

وحينما شرعت في البحث عن الأعلام الذين أنجبهم إقليم تازة، ألهمني الله أولا وشجعني المرحوم العلامة عبد الله كنون الحسني ثانيا أن أبدأ بالتعريف بهذا العالم، وحينما توفرت لي بعض المعلومات عن حياته التي استقيتها من بعض المطبوعات وهي قليلة جدا أو من بعض المخطوطات وهي كثيرة، وقد أشرت إليها في الكتاب الذي ألفته عن هذا العالم التسولي التازي المشار وهو مطبوع.

وبمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلاء المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه المنعمين، وفي إطار محاولة نفض الغبار عن تاريخ مدينة تازة الفكري، وذلك من خلال التعريف بعلمائها وشعرائها وفقهائها ومقرئيها ورجال التصوف فيها، أقام فرع رابطة علماء المغرب بتازة مهرجانا ثقافيا لإلقاء الأضواء على أحد أعلام إقليم تازة البارزين المقرئ أبي الحسن علي الشهير بابن بري وذلك أيام : 15، 16و17 شعبان 1406 هـ الموافق 25، 26 و27 أبريل 1986م، وكان من الخطوط العريضة لهذا المهرجان الثقافي: وضع لوحة رخامية على بناية ضريحه.

وحينما زرت ضريحه الموجود وراء العمالة لأول مرة وجدت أن بنايته آيلة للسقوط، فاقترحت على السيد عامل إقليم تازة آنذاك السيد مصطفى قميحة إصلاحه قبل كل شيء، وخرج الاقتراح إلى حيز الوجود، ومن باب الاعتراف بالجميل القول بأن هذا الإصلاح بذلت فيه مجهودات مادية كبيرة من طرف الجهات المختصة بتازة تلك المجهودات التي تتناسب والمكانة العلمية الكبيرة لهذا العالم التازي، وقد استغرق الإصلاح أكثر من سنة.

والجدير بالذكر أن ابن برري هذا ترك 12 مؤلفا في الفقه والوثائق والفرائض والنحو والعروض والأدب والقراءة، فكان بهذا عالما مشاركا، ولم الهلم إلا على مؤلف له في الأدب وهو: "اقتطاف الزهر واجتباء الثمر" بالخزانة الحسنية، وشهرته إنما قامت على منظومته "الدرر اللوامع في أصل مقرأ نافع" والتي شرحها كثير من الأعلام المقرئين في المغرب وتونس والأندلس، وقد بلغت هذه الشروح ما يقارب ثلاثين شرحا ما بين مطول ومختصر، ولم الهلم إلا على عشرة منها: واحد مطبوع وهو للمرحوم أبي إسحاق إبراهيم المرغيني مفتي الديار التونسية، والباقي مخطوط.

والملاحظ أن هذه الشروح المخطوطة لا تخلو منها خزانة عامة في المغرب ابتداء من خزانة المسجد الأعظم بتازة ومرورا بخزانة القرويين ومكناس وخزانة تطوان والخزانة الحسنية. وقد أشرت إلى هذه الشروح وعناوينها وأين توجد في الكتاب الذي ألفته عن هذا المقرئ التازي تحت عنوان: "ابن برري التازي أمام القراء المغاربة" وقد طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عام 1416هـ 1996م بأمر من المغفور له صاحب الجلالة الحسن الثاني طيب الله ثراه.

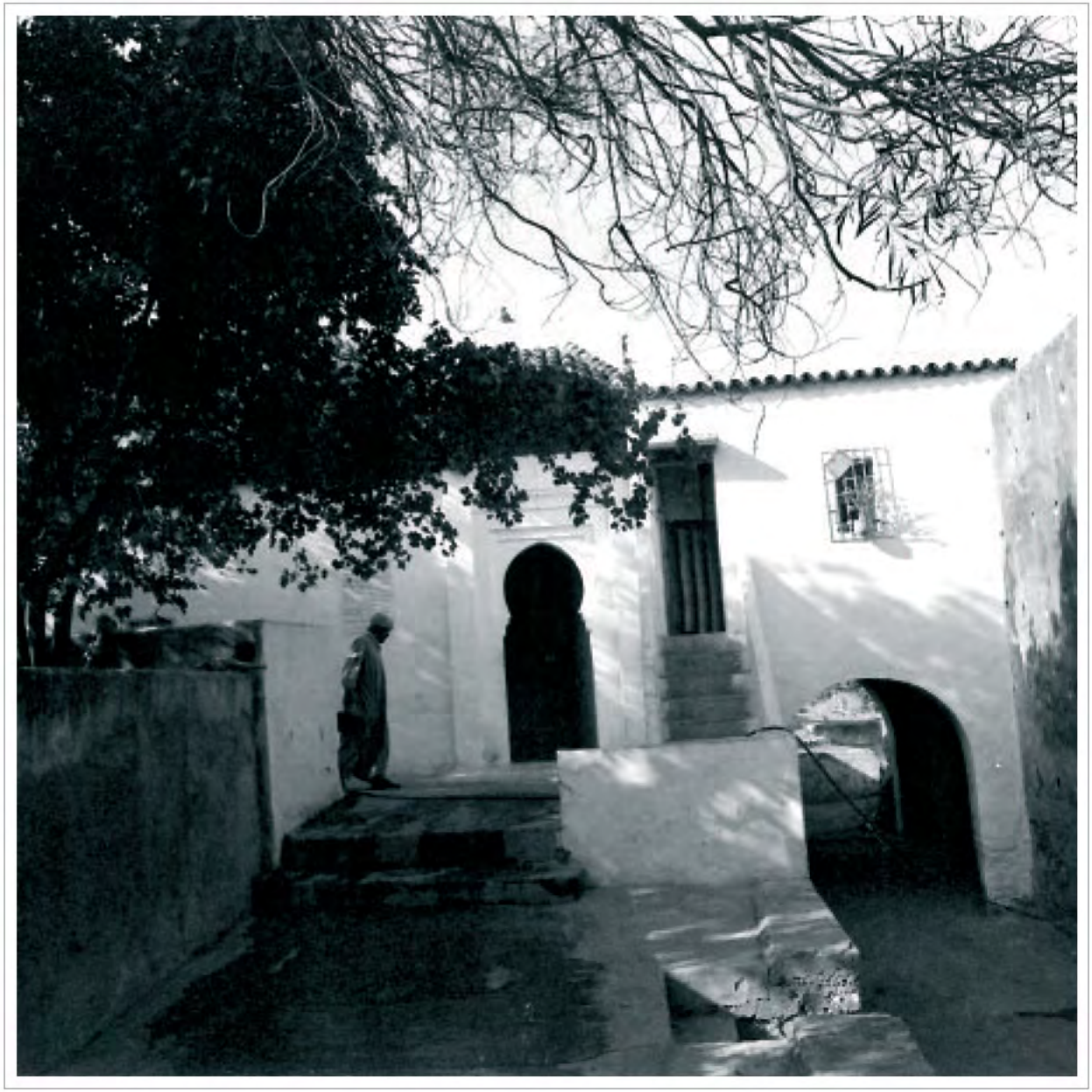

نشأة الحركة الوطنية بتازة

إن الحركة الوطنية بتازة لها ارتباط قوي بالحركة الوطنية المغربية، ولن كانت الحركة الوطنية التازية لم تظهر إلا حوالي سنة 1932م، وأول من وضع لبنتها بهذه المدينة هو إبراهيم الوزاني فمن هو ؟

هو إبراهيم بن عبد الله الوزاني المولود بتازة، حفظ القرآن على معلم الصبيان سيدي محمد بلحسين بزاوية عيساوة درب مولاي عبد السلام، ثم درس النحو بألفية ابن مالك والفقه والتوحيد على يد الأستاذ محمد البرنوسي المجاز من طرف علماء القرويين، ثم على يد السيد محمد البقالي، ثم على يد الأستاذ المامون الشنكيطي المهاجر الذي كان يدرس رسالة أبي زيد القيرواني في مسجد للا عذراء الواقع الآن بجانب ساحة أحراش، وقد استمرت هذه الدراسة ما يقرب من ثلاث سنوات، ثم التحق بالقرويين لمتابعة تعليمه بها.

وصادف وصوله إليها بداية تأسيس الحركة الوطنية فانضم إليها. يقول مؤرخ المملكة الأستاذ الباحث السيد عبد الوهاب بنمنصور في كتابه "أعلام المغرب العربي" ج1 حرف الألف في حق ابراهيم الوزاني: "وشارك في حركة الاحتجاج على صدور ذلك الظهير، فجلد وسجن، ولم يلبث أن شاع ذكره، ولفت الأنظار إليه ما ناله من الأذى ولحقه من المضايقات، وما أوتي من الصبر والجَلَد على تحمل كل نصب وعذاب انصب عليه من جانب المستعمرين وأعوانهم المغاربة كالسجن والجلد والنفي و التجويع وسائر أنواع الزجر المادية والنفسانية التي كان يباشرها المستعمرون الفرنسيون وكان الفرنسيون كلما أمعنوا في إذايته ازداد هو جرأة عليهم وتحركا ضد أعمالهم وفضحا لخططهم، وتشهيرا واحتقارا لكل من يساعدهم ويسير في ركابهم حتى أصبح معدودا في نظر الشبان الناشئين والوطنيين المبتدئين من الأبطال".

وقد أرجعه ابن البغدادي إلى تازة ليتخلص من نشاطه الوطني الذي كان يقوم به مع المجموعة الأولى من رواد الحركة الوطنية. وقد اعتقد ابن البغدادي أنه بتسليط أنواع القمع على المناضل إبراهيم الوزاني سيطفئ شعلة نشاطه الوطني المتقدة، ولكن الإيمان الصادق لا تزعزعه الأحداث مهما كانت جسيمة. وعند عودته إلى تازة أنشأ أول مدرسة حرة على غرار المدارس الحرة التي أنشأتها الحركة الوطنية في المغرب بتنسيق محكم مع المغفور له جلالة الملك محمد الخامس نور الله ضريحه وأسكنه فسيح جنانه. وقد استطاع إبراهيم الوزاني أن يقنع المسؤولين عن زاوية مولاي الطيب بتحويلها إلى مدرسة حرة سنة 1932م.

ومولاي الطيب منشئ هذه الزاوية بتازة العليا هو ابن محمد بن مولاي عبد الله الشريف جد الوزانيين، وكان المسؤولان عن هذه الزاوية هما:

1 - الحاج عبد السلام بن الواحد بناني ناظر أحباس هذه الزاوية، وكان مسؤولا عن جمع مداخيلها وصرفها على أجور الحزابة وصيانة الزاوية وشراء الحصير وغير ذلك.

2 - الحاج لمقدم الطيب بن الحاج البشير وكان مسؤولا عن مريديها.

وقد استطاع إبراهيم الوزاني أن يكون لجنة من أبناء تازة المخلصين ويقنعهم بأداء هذا العمل الوطني، بعد أن كانت الزاوية تخصص كل جمعة "للحضرة" وتلاوة القرآن وكان أعضاء اللجنة التأسيسية هم السادة : المرحوم مولاي العربي الأمراني والمرحوم الطاهر بن المقدم بن عبد السلام التوزاني والمرحوم الحاج الطيب القرموني والمرحوم الحاج المقدم الطيب بلغيث.

وأضيف إلى هذه اللجنة فيما بعد السيدان المرحوم عبد القادر مهدي وعبد القادر بلعياشي.

دور المدارس الحرة بتازة

إن تأسيس مدرسة حرة بتازة في تلك الظروف الاستعمارية الصعبة لهو عمل وطني جدير بالإعجاب والتقدير وكان نظام الدراسة بهذه المدرسة على الشكل الآتي: يجلس التلاميذ على الحصير ويتلقون الدروس بواسطة السبورة في مختلف المواد كالنحو والتاريخ وترديد الأناشيد الحماسية، وكانت الامتحانات تجري بشكل منظم بحضور أعيان المدينة.

وقد استقدم إبراهيم الوزاني الأستاذ صالح المنصوري والأستاذ محمد الصنهاجي من فاس للتدريس بها، بالإضافة إلى السيد أحمد الصنهاجي الذي لا زال يقوم بتحفيظ القرآن إلى الآن في إحدى الكتاتيب القرآنية وقد اتصلت به - منذ مدة - فحكى لي كثيرا عن هذه المدرسة الحرة.

وكان ابراهيم الوزاني، زيادة على إشرافه العملي - بإدارة المدرسة والقيام بالدروس نهارا- يقوم بدروس ليلية في الزاوية نفسها، كما كان يخرج التلاميذ كل جمعة للمصلى للقيام بحركات رياضية، وكانت الدراسة تشمل الأناشيد الوطنية والأشعار الحماسية مثل قول الشاعر عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

والبيتان في معانيهما وأبعادهما الوطنية والسياسية لا يحتاجان إلى شرح أو تعليق.

ولهذين البيتين قصة طريفة، وهي أنه في يوم ما قدم للمدرسة الجنرال لوزان مع رئيس قسم السياسة الكومندان الحسين، ودخلا للمدرسة على حين غفلة، فوجدا هذين البيتين مكتوبين على السبورة ويقرأهما أحد التلاميذ وحينما ترجم الحسين معناهما للجنرال تخرق غيظا، وأدرك الهدف السياسي البعيد الذي كان يرمي إليه إبراهيم الوزاني من فتحه لهذه المدرسة وتدريسه للتلاميذ مثل هذه القصائد والأناشيد، وأخفى حقده في نفسه إلى حين.

ولا بأس من الإشارة إلى بعض الأناشيد التي كانت تلقن للتلاميذ في هذه المدرسة مثل:

كلنا للوطن للعلا للعلم
خير هذا الزمن قطرنا ذو الكرم
كملنا والفتى عنه صوت الوطن
أسد غاب متى ساورتنا الفتن
قطرنا ذو الكرم صانه ربنا

وهذا النشيد للمرحوم أحمد القرن

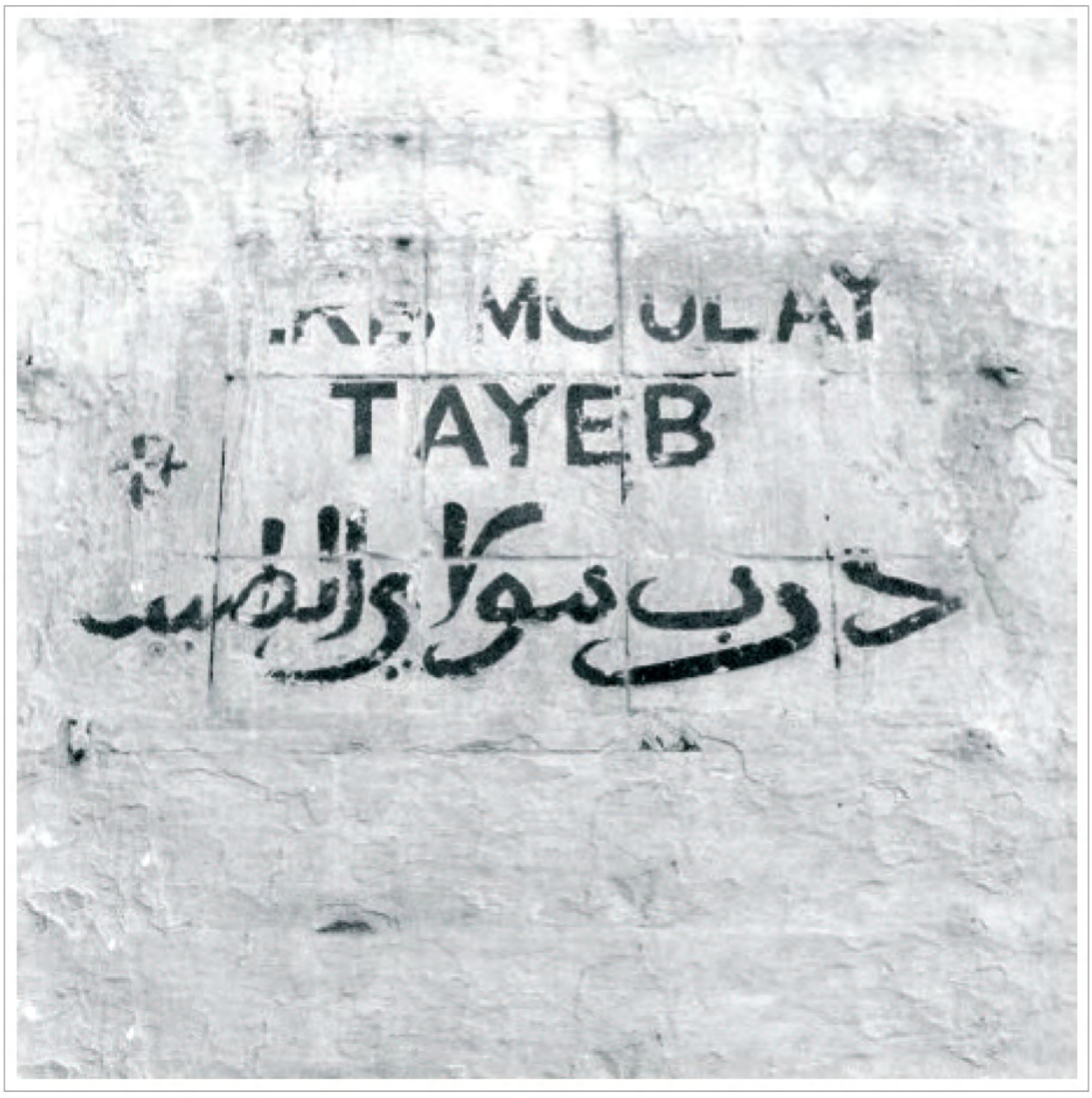
MOULAY
TAYEB

"الوطن"

يا بني قومي أفيقوا من سبات الغافلين
إن نوم الحر موت والمنى للعاملين
هل يرتجى الدوا من في الجهل ثوى
وبالجبن انكوى وبالذل ارتوى
يا حماة الوطن
قوموا من الوسن بكم جاء الزمن
فاستنقذوا الوطن بالمال والبدن
عزنا بالوطن
تازة العزيزة للوطن وهي الحمى وهي السكن
وهي الفريدة في الزمن وكل ما فيها حسن
علمونا علمونا أو إلى الموت ادفعونا
أيها الآباء أنتم عن بنيكم تسألونا
علمونا علمونا وإلى الدين أرشدونا
إن قوما جهلونا وفرنسا تظلمونا
وفرنسا قد أرادت أن نعيش جاهلينا
فس أم البلاد لا تلبس الحداد
نحن بالاتحاد بالمال والولد
فداء للوطن
فلننشر الصحف ونحمل السيوف
ونخرق الصفوف ونخصب الكفوف
غيرة للوطن
يحيا شرفنا له دماؤنا
جنة أبناؤنا مهر أرواحنا
لاستقلال الوطن

وقد سجلت هذه الأناشيد من فم الذين عاشوا جنبا إلى جنب مع الأستاذ إبراهيم الوزاني وكانوا يحفظونها عن ظهر قلب، وهي غنية عن كل تعليق.
والجدير بالذكر هنا أن المندوب الفرنسي المدعو جرانطو كان يعتبر من الأعداء الألداء للحركة الوطنية، وكثيرا ما كان يستهزئ بأفرادها، ويهددهم حينما تتاح له الفرصة، وكان المرحوم إبراهيم الوزاني يعرف منه هذه العجرفة الاستعمارية، ويقابل استهزاءه باستهزاء أشد جرأة وأقوى تهكما، من ذلك على سبيل المثال أنه سأله يوما أمام جماعة من الناس عن السر في سقوط أحد النجوم ليلا فأجابه الوزاني فورا: إنه يرمز إلى سقوط نجم فرنسا.

أحداث المسجد الأعظم وإغلاق المدرسة

كانت العادة المتبعة منذ مدة قبل صلاة الجمعة بالمسجد الأعظم هذا قراءة كتاب "دليل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار" للعالم العارف الصوفي محمد بن سليمان الجزولي السملالي من شرفاء سملالة وهي قبيلة من جزولة بإقليم سوس ومما قيل في هذا الكتاب

إذا أنت لازمت الصلاة على الذي صلى عليه الله في الآيات
وجعلتها وردا عليك مؤكدا لاحت عليك "دلائل الخيرات"

ولهذا فلا غرابة إذا كان بعض سكان تازة كغيرهم يرددون كتاب "دليل الخيرات" في كثير من الأوقات، ولا زلت أذكر وأنا أقرأ في الكتاب (المسيد) أنهم كانوا يرددون هذه الصلوات في ضريح سيدي عزوز.

ونظمت الحركة الوطنية بتازة وهذه العادة قائمة، وقد قررت "كتلة العمل الوطني" قراءة القرآن قبل صلاة الجمعة في عدة مدن كفاس والرباط وسلا والبيضاء ومراكش وتازة، وواضح أن هذا القرار ديني يهدف إلى غرض وطني لا تخفى أبعاده، وقد كان المرحوم عبد السلام القرموني الطالب بالقرويين آنذاك هو صلة الوصل بين قيادة فاس وقيادة تازة. وتنفيذا للقرار دبر إبراهيم الوزاني خطة يوم الجمعة 11 ماي 1934م وهي انه اتفق مع مجموعة من الوطنيين سبقوا إلى المسجد الأعظم وجلسوا في المكان الذي يقرأ به أصحاب "دليل الخيرات" واحتلوه وبدأوا يقرأون القرآن فلما جاء أصحاب "دليل الخيرات" فوجئوا بهذا السبق الذي لم يكونوا يتوقعونه، وقد شعرت السلطات الاستعمارية بالتضايق من هذه المظاهرة التي وقعت بالمسجد الأعظم وأدركت أبعادها الوطنية، ولذلك حاولت أن تؤثر على القائمين بها بإضعاف معنوياتهم العالية وتهديدهم، بأن استدعت يوم الأربعاء 16 ماي 1934م آباء وأولياء التلاميذ الذين كانوا يدرسون بالمدرسة الحرة، والذين خرجوا في أثناء الأسبوع في شبه مظاهرة تضامنا مع مدير المدرسة، وكان كل ولي يستنطق على حدة ويخرج من باب أخرى حتى لا يعرف مرافقه بماذا سئل وبماذا أجاب ؟ وقد هدد جرانطو أحد المدعوين قائلا : إن عدت إلى الإخلال بالأمن سنجلدك في الساحة العمومية، وفي أثناء هذا الأسبوع كانت المراقبة على الوزاني من طرف سلطات الحماية.

كل هذه الإجراءات والتهديدات لم تؤثر في عزيمة وتصميم المنظمين لقراءة القرآن يوم الجمعة المقبل وفي يوم الجمعة 18 ماي 1934م وقع اصطدام قبل صلاة الجمعة بين أصحاب "دليل الخيرات" وأنصار قراءة القرآن توقفت على إثره الصلاة. وهنا وجد جرانطو الحاقد على الوطنيين الفرصة مواتية لينتقم من إبراهيم الوزاني وأصدقائه الذين كانوا المحركين لهذه المواجهة، وقد ألقى القبض عليهم كما ألقى القبض على خطيب الجمعة الشيخ المرحوم السيد محمد بنسعد الذي انضم مؤيدا أنصار قراءة القرآن

وقد نكبت في هذه المواجهة الوطنية الأولى للاستعمار عائلات تازية كعائلة بنسعد وعائلة مهدي وبعض الأفراد من العائلة الأمرانية، منهم من قضى نحبه والأقل القليل لا زال على قيد الحياة. وقد حوكم المشاركون في هذه الأحداث من ثلاثة شهور إلى سنتين، وقد قال إبراهيم الوزاني لجرانطو الطاغية وقت المحاكمة "ستحكم علي بسنتين أعرف هذا مقدما" وذلك لأن الحكم بسنتين كان هو أقصى حكم يحكم به على محكوم آنذاك.

وقد مكث المسجونون بتازة شهرا كاملا كانوا يأكلون الخبز والماء، وينامون على الأرض 13 يوما وهم مقيدون بالسلاسل. وكان شبيبة الحمد المرحوم محمد بنسعد يواسي المسجونين ويصبرهم، ويضرب لهم الأمثلة بالصحابة رضي الله عنهم في صبرهم، كما كان رحمه الله يرى أبناءه وأقاربه وعلى رأسهم إبراهيم الوزاني يجتمعون اجتماعات متوالية في منزله الموجود بزنقة "أشرقيين" قرب المسجد الأعظم، وكان يعرف معرفة تامة الهدف الوطني الذي يجتمعون من أجله وهو يشجعهم ويفتح لهم داره.

وقد نشرت جريدة "الحياة" التي كانت تصدر بتطوان تحت مسؤولية المرحوم عبد الخالق الطريس في عددها 12 "مؤرخ بيوم الخميس 10 صفر1353هـ موافق 24 ماي 1934م مراسلة تقول: "اجتمع جمهور كبير في المسجد الأعظم بتازة وقرأوا القرآن، ثم وقف من بينهم الوطني الغيور الأستاذ إبراهيم الوزاني فحَمس الجمهور بخطابه حتى وقع الهتاف المتواصل ضد فرنسا وسياستها العقيمة، وقد كانت نتيجة هذا الاجتماع إلقاء القبض على أربعة عشر شخصا من بينهم الأستاذ الوزاني السابق الذكر، وقد أحدث هذا القبض استياء عاما بين سائر الطبقات..."

وكان من نتائج هذه الأحداث الوطنية الأولى بتازة أن أغلقت المدرسة الحرة الأولى وشرد تلامذتها كما شرد أساتذتها. وبعد خروج إبراهيم الوزاني ورفقائه من السجن، تابع هو نشاطه الوطني خارج تازة. يقول عنه عبد الوهاب بنمنصور مؤرخ المملكة في كتابه السابق الذكر: "وساهم في المظاهرات الثقافية التي كان ينظمها الوطنيون بين حين وآخر لجمع شتات قادة الفكر وحملة الأقلام، وتقوية للأواصر التي تجمع الشعب المغربي العربي المسلم بأشقائه المسلمين في جميع جهات الأرض لا فرق بين من يتكلم منهم باللغة العربية وبين من يتكلم بغيرها من اللغات، وما زال منظره ماثلا أمام عيني وهو يصول ويجول أثناء انعقاد مؤتمر جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفاس سنة 1936م. ويدلي بدلوه مع من شارك فيه من قادة السياسة والفكر بمغربنا الكبير".

وحينما بطش الجنرال نوجيس بالوطنيين بطشته الكبرى، أصبح إبراهيم الوزاني مطاردا من قبل السلطات الفرنسية، وقد اختفى عند السيد عبد اللطيف الصبيحي مدة طويلة، ثم رجع إلى تازة ليلا بعدما كان يتنكر بمختلف وسائل التنكر، وبات عند المرحوم عبد القادر مهدي لأنه من أقاربه الأقربين وكان ذلك سنة 1937م ولست أدري كيف فر من تازة إلى تطوان.

ومن يريد معرفة المزيد عن نشاط إبراهيم الوزاني خارج تازة فليراجع كتاب "أعلام المغرب العربي" الجزء الأول ففيه تفاصيل عن نشاطه في تلك الفترة من تاريخنا الوطني.

وأخيرا يجدر أن أسجل بكامل الاعتزاز والافتخار وبمزيد من التقدير والإكبار انه في سنة 1936م - كما حدثني كثير من شيوخ وكهول تازة - قام المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه بزيارة لتازة وقد جاءت هذه الزيارة الميمونة إثر خروج المحكوم عليهم في أثناء الأحداث السالفة الذكر.

وبالرغم من الحصار الذي ضربه الاستعمار الفرنسي على هذه الزيارة حتى لا يستفيد منها الوطنيون التازيون، فقد كان جلالته أبعد نظرا حيث حبس مائة مصحف باسمه على المسجد الأعظم وهي تحمل طابعه الشريف الذي جاء فيه : "هذا المصحف حبسه أمير المؤمنين سيدي محمد بن يوسف على المسجد الأعظم بتازة".

وزيارة جلالته - نور الله ضريحه - لهذا المسجد بالذات وتحبيس المصاحف عليه بالخصوص يرمي إلى أهداف وطنية لا تخفى فتحبيس المصاحف على المسجد فيه تأييد معنوي واضح للحركة الوطنية التازية.

ولقد ظهرت النتائج الإيجابية الأولى لهذه الزيارة المباركة حيث كان ناظر الأحباس يقوم بنفسه وبواسطة أعوانه يطلبون من السكان أن يأتوا إلى المسجد ليقرأوا القرآن قبل صلاة الجمعة بأمر من جلالة الملك.

ولا غرابة أن يقف الملك الشاب الغيور هذا الموقف المشرف، فقد كان المغاربة ولا زالوا مقتنعين كل الاقتناع أن العرش العلوي هو استمرار لوجودنا الحضاري والديني ورمز لوحدتنا الوطنية والدينية، فلطالما ناضل الملوك العلويين لتصان الوحدة الترابية وتثبت مركز الدولة المغربية وتتقوى جانبها في الداخل والخارج.

"مقر البريد" تازة السفلى

تشكل بناية مقر البريد بتازة السفلى زاويتين للساحة الرئيسية في ملتقى شارع موسى ابن نصير وشارع علال بن عبد الله مع ساحة "دراع اللوز" قديما وفي موقع جد مركزي. إنها بناية إدارية ذات سلم حجمي صغير استوعبت وسائل هندسية من وحي المدرسة التقليدية المعاصرة مع الاعتماد على تماثل العناصر الهندسية في التركيبة المعمارية للواجهة الرئيسية، من جهة، ومن جهة أخرى على نصف رواق مغطى بالطابق الأرضي يسمح بالولوج إلى مقر الوكالة البريدية الرئيسية التي تم إنشاؤها بالحي الأوروبي (تازة السفلى) بعيدا عن المدينة القديمة (تازة العليا).

نزل "كيوم كيل"

تقع بناية نزل "كيوم كيل" بموقع استراتيجي في متم الزاوية الرئيسية لشارع محمد الخامس بالمدينة الجديدة أو "ذراع اللون" بتازة السفلى والتقائه بالساحة الرئيسية التي كان يعتمد عليها خلال فترة الحماية للاحتفاء بمختلف المناسبات الرسمية أو الأنشطة التي كانت تعرفها المدينة. كما عرف هذا النزل استقبال مجموعة من الشخصيات السياسية والثقافية الوطنية والدولية خلال فترة الحماية أو بعد ذلك.

لقد شيدت هذه البناية خلال الثلاثينات مع مطلع عهد الحماية بموقع مركزي في إحدى زوايا شارع محمد الخامس والجدير بالذكر أن استعماله الأصلي تغير وذلك بدخول بعض الوظائف الجديدة كمقر البنك، مع المحافظة على الشكل الهندسي التاريخي لتلك الحقبة حيث ينفرد بجودة إنجاز تدل على استعماله الخاص.

ويعتبر هذا النزل شهادة قيمة ومتميزة على تطور الهندسة المحلية في اتجاه مبادئ "الحركة الدولية" متخلية بذلك عن الأسلوب التقليدي المحلي.

BMCI
BMCI

نزل الدوفيني

يعتبر نزل الدوفيني الذي مازال محافظا على وظيفته الرئيسية من بين البنايات التي ترجع إلى فترة الحماية بالمدينة الجديدة بالمدخل الرسمي والرئيسي للمدينة آنذاك. لقد اعتمد في التركيبة المعمارية لهذه البناية على استعمال الأساليب المعمارية البسيطة حيث يمكن ترتيبها ضمن الهندسة الوظيفية للأربعينيات، تمزج ما بين العناصر المعمارية للمدرسة العصرية المرتبطة باستعمالها الصناعي مع عناصر أخرى قريبة من الرقة والحساسية التقليدية.
ومن بين العناصر الأولى تجدر الإشارة إلى الشرفة المركزية التي تحتل وسط البناية (فوق المدخل) وإلى الواقية ذات الحين المنعرج التي تقي وتؤطر مدخلها. وبين هذين العاملين تتشكل صورة ذات شعار خاص وإثارة.
تشكل هذه البناية مع مختلف البنايات الأخرى (نزل كيوم هيل، مقر البريد، دار الثقافة، مقر الأمن الوطني، مقهى البريد،...إلخ) المكونة للساحة الرئيسية "ذراع اللوز" مجموعة متناسقة ومتكاملة جماليا ووظائفيا حيث ولدت انسجاما حضاريا: ارتفاعات محدودة (طابقين على الأكثر)، خطوط الإفرين، توازن الفراغات بتعامل وتفاعل محكم مع العناصر التي تشكل المنظر العام كالزوايا والواجهات الرئيسية والأبراج والمساحات الخضراء المكونة للساحة والتي تعتبر مركز المدينة الجديدة حيث تتمركز أهم المرافق العمومية حول ساحة رئيسية في تناسق وانسجام معماري وعمراني على غرار باقي المدن المغربية التي عرفت نفس التجربة كفاس ومكناس والرباط ووجدة....إلخ

Dauphiné
الدوفيني
Hôtel
فندق

دليل لمواقع الصور الفوتغرافية:

ص 7 : صورة جوية لمدينة تازة العتيقة خلال التسعينات.
ص 9 : صورة للأستاذ مَحمد بن احمد لمرابي
ص 11 : منظر عام لأسوار المدينة وبرج السراجين والجبال المجاورة.
ص 13 : منظر عام للمدينة العتيقة والأحياء الجديدة المجاورة.
ص 15 : أدراج باب الجمعة.
ص 17 : جانب من الأسوار والخندق المحيطان بالمدينة العتيقة.
ص 19 : ساحة المشور
ص 21 : برج السراجين.
ص 23 : منظر عام على الحدائق والبساتين المجاورة للمدينة العتيقة.
ص 25 : صومعة الجامع الكبير
ص 27 : باحة الجامع الكبير يتوسطها مجال الوضوء.
ص 29 : المنبر الموحدي بالجامع الكبير
ص 31 : الثريا العجيبة بالجامع الكبير
ص 33 : دار المخزن
ص 35 : مدخل ضريح سيدي عزوز
ص 37 : المدرسة الحسنية أو مدرسة المشور
ص 39 : جانب من معلمة البستون
ص 41 : ساحة أحراش
ص 43 : برج السراجين والأسوار المجاورة.
ص 45 : بقايا باب الريح.
ص 47 : منظر عام للمدينة العتيقة مع التركيز على عقبة بوقلال وصومعة الجامع الكبير
ص 49 : صورة عامة لتازة السفلى مأخوذة من مقهى الباشا.
ص 51 : المسبح البلدي.
ص 53 : المقبرة المسيحية بتازة السفلى
ص 55 : منظر عام لأسطح المدينة العتيقة.
ص 57 : مدخل دار عصمان
ص 59 : صحن دار عصمان
ص 61 : صحن دار عصمان
ص 63 : شرفة منزل يطل على حقبة بوقلال

ص 65 : منظر عام لمدخل و صحن دار عصمان
ص 67 : بهو دار لخصاصي
ص 69 : واجهة منزل قديم بالمدينة العتيقة.
ص 71 : إحدى دروب المدينة العتيقة.
ص 73 : زنقة سيدي عبد الجبار المحاذية للجامع الكبير
ص 75 : قوس متلاشي قرب مدخل درب الصيني
ص 77 : مدخل درب الطبيب.
ص 79 : إحدى دروب المدينة العتيقة.
ص 81 : باب الزيتونة المؤدية إلى زنقة سيدي بلفتوح.
ص 83 : باب منزل قديم.
ص 85 : باب الزاوية القادرية.
ص 87 : لوحة إشارة إلى "درب زاوية بن الجبش".
ص 89 : داخل ضريح ابن جبش
ص 91 : درب زاوية ابن جبش
ص 93 : درب زاوية ابن جبش
ص 95 : إحدى دروب المدينة العتيقة القريبة من قبة السوق.
ص 97 : زنقة سيدي مصباح المؤدية إلى المشور
ص 99 : إحدى دروب المدينة العتيقة.
ص 101 : منظر عام على جنان السبيل ومأذنة و مسجد موريتانيا سابقاً أو مسجد الحسن الثاني حالياً
ص 103 : ضريح سيدي علي بن بري.
ص 105 : مدخل ضريح سيدي علي بن بري.
ص 107 : أسوار المدينة العتيقة قرب باب لهيطي
ص 109 : مقر البريد بتازة العليا.
ص 111 : لوحة إشارة إلى درب مولاي الطيب.
ص 113 : باب المشور
ص 115 : صورة من فوق صومعة الجامع الكبير
ص 117 : صورة عامة لسطح وقبب الجامع الكبير ومنظر عام على المدينة العتيقة.
ص 119 : إحدى أسوار المدينة العتيقة المحاذية لباب لهيطي
ص 121 : بناية مقر البريد بتازة السفلى (المدينة الجديدة).
ص 123 : بناية نزل "كيومطيل" بتازة السفلى (المدينة الجديدة).
ص 127 : زخرفة من زربية تقليدية مصورة بالصوف. من صنع السيدة الزهرة بركان

تشكرات

محمد بن أحمد لمراني، فاطمة أزناك، حسن المنصوري، يوسف التوزاني، صباح التوزاني، حميد لحيطة، حسن سيراج، حكيمة حلوات، الزهرة بركان، زين العبيدين محمد، أحمد النخلاوي، عبد الهادي التازي، رضا كنون، أمينة فهمي، مبروك الصغير، حميد أحمد الهزاط، محمد المالكي، مليكة بنت محمد بن قليلو، أحمد العراقي، عبد الحق ابعييو، محمد النويكة، حليمة البوني، سلطانة احمد، راضية النجار، ميشال ناشف، محمد الصنهاجي، الهادي لسمر، الحسين لسمر، كرا عبد الله، صلاح الدين بوكرين، لحسن المنصوري.

من منشورات مديرية الهندسة المعمارية
الوزارة المنتدبة لدى الوزير الأول المكلفة
بالإسكان والتعمير
الرباط - المغرب

صورة الغلاف
منديل من القرن الأصيل التازي. في ملك السيدة مليكة بنت محمد بن قليلو

النصوص المدرجة ضمن الصفحات 14، 20، 22، 40، 42، 44، 46، 50، 54، 56، 58، 60، 120، 122 و124 من إعداد محمد لهيطة.

إنجاز:
رضا كنون محمد لهيطة، سعيد ملين.

تنسيق إعداد الكتاب :
محمد لهيطة.
تحت إشراف : سعيد ملين.

رقم الإيداع القانوني : 2005/0613
الرقم الدولي المعياري للكتب : x-92-401-9954

تهييء، ترتيب وتنظيم النصوص والصور :
كرافيلي، الرباط

الطبع :
منشورات عكاظ 2005
الرباط - المغرب.

كل إعادة طبع هذا الكتاب بطريقة أو بأخرى، حالية أو مستقبلية، معروفة أو مجهولة هي مقبولة ومحبذة وبدون فائدة مادية.

التراث وروح الجمال

تارة

رقم الإيداع القانوني: 2005/0613
الرقم الدولي المعياري للكتب : 9954-401-92-x